# کورونا

الكتاب: كورونا
المؤلف: قصي الشيخ عسكر
الطبعة الأولى: ٢٠٢١
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
إصدار: مؤسسة المثقف العربي، سيدني – أستراليا
نشر وتوزيع: دار أمل الجديدة، دمشق – سوريا
ISBN: 978-9933-662-23-3

Almolhaqaf Arabic Association

سورية - دمشق
جوال ٠٠٩٦٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦ - ٠٠٩٦٣٩٣٢٠٠٢١٢٦
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٢٧٧٤٢٩٢

قصي الشيخ عسكر

# كورونا

رواية قصيرة

مؤسسة المثقف العربي

أمل الجديدة

# الراوِيةُ الذي يكشفُ المسكوتُ عنه
# قراءةٌ في قصّةِ قُصي الشيخ عسكر الطويلة الكورونا

أ. د. عبد الرضا عليّ

في قصّة قصي الشيخ عسكر الطويلة (الكورونا) رصدٌ لظواهِرَ عديدةٍ تشيعُ في المجتمعات الأوربيّةِ تحديداً؛ وهذه الظواهرُ تندرجُ ضمن المسكوت عنه في غير تلك المجتمعات لأسبابٍ تتعلّقُ بالمحرَّماتِ، أو بما اصطُلِحَ عليه بـ (المعيب) أو (المخجل)، وسنقفُ عندها لكونها تشكّلُ نوعاً من الجرأة في التناول، فضلاً عن أهميّتِها في الجانب الفنّي.

قصّةُ (الكورونا) الطويلة هذه لا عَلاقةَ لها بالوباءِ، ولا إلى تحولِهِ إلى جائحةٍ، ولا بأعراضها، وعلاجِها، إنّما اتّخذت الروايةُ اسمَ الوباءِ عنواناً لها، لأنَّ كتابتَها بدأتْ عند تفشّي هذا المرض في مدينةِ (ووهان) الصينيَّة كما نزعم، وما رافقَ تفشّيهُ من هلعٍ عمَّ الإنسانيَّةَ بعامَّةٍ.

وعلى وفقِ ما ارتضيناهُ منهجاً لنا في القراءةِ، فإنّنا نجدُ المحاورَ الآتيةَ ستفضي إلى ما نرجوه من حقيقةٍ نذيعُها بين القرّاء:

## 1 . التقنية:

أدارَ الأستاذ الدكتور قصَي الشيخ عسكر قصّتَهُ على تقنيةِ الراوي الداخلي العليم [في الأعمِّ الأشملِ]، لكنَّهُ كانَ يداخلُ بينها، وتقنياتٍ

أخرى كالمحاورة، والمونولوج الدرامي (المناجاة النفسيّة) والتداعي الحرّ [في الأقلّ الأضيق.]

وتقنيةُ الراوي الداخلي العليم تختلف عن تقنيةِ الراوي الموضوعي، فالأخيرُ وصّافٌ خارجيٌّ لا يتدخّلُ في الأحداثِ، ولا يجيبُ عن أسئلةٍ لا يعرفُها، فهو موضوعيٌّ في نقلِ الأحداثِ، وتصويرِ السردِ دونَ إقحامِ شخصيّتِه فيه، بينما الراوي الداخلي هو واحدٌ من شخصيّاتِ القصّةِ، وقد يكونُ هو الشخصيّة المحوريّة فيها، أو كما يطلق عليه بـ (البطل) الذي يصوّرُ الأحداثَ كما يشاءُ، فيسمح لنفسهِ أنْ يزيدَ فيها، أو ينقصَ، وقد يبتعدُ عن الموضوعيّةِ لتدخّلِهِ السافرِ في تحميلِ الحدثِ ما يشاءُ.

والراوي الداخلي في قصّة (الكورونا) كان البطل نفسهُ (حسن) الذي يخبرنا أنه وُلِدَ في مدينةِ برمنغهام البريطانيّة سنة ١٩٩٩م وأنه عراقيُّ الأصل جذوره من الناصريّةِ، ومتخرّجٌ في قسمِ (البسايكترسك) ويعمل في مركز (حقل الزعفران) لذوي الاحتياجاتِ الخاصة المصنّفينَ ضمن عوق (اسبارجر) بمدينة نوتنغهام البريطانيّة، وهؤلاءِ المرضى يتّصفونَ بالعدوانيّة، والعنفِ المفاجئ غير المتوقّع. ومع ذلك فلابدَّ له ولبقيّةِ زملائهِ من العاملين في المركزِ أنْ يعاملوا هؤلاء بلطفٍ، وحنوٍّ، ومحبّةٍ.

ولكونِ الشخصيّةِ المحوريّةِ الرئيسةِ (حسن) هو الراوية، فقد أخبرنا أنَّ والدَهُ كان قد هربَ من العراقِ في أثناءِ الانتفاضة الشعبانيّة التي قام بها معظم العراقيين بعد هزيمةِ الجيش العراقي في الحرب غير المتكافئة مع دول التحالف التي قادتها الولايات المتحدة ضد العراق في ما سُمّي بـ (حرب الخليج الثانية) سنة ١٩٩١م.

على أنَّ الراويةُ يؤكدُ للمتلقي أنَّ جدَّته لأبيه هي من كانت وراء قرار دخول والده (قبل زواجه) مدينة رفحاء السعوديّة هارباً، لأنَّها خشيتْ على ابنها من الموت إعداماً لمشاركتهِ في الانتفاضةِ ضد جمهوريّة الخوفِ، ومنظّمتها السريّة في العراق، علماً أنَّ جدَّ البطل (كما يخبرنا الراويةُ) كان أوّل شهيدٍ سقطَ في مرتفعات الجولان السوريّة حين شاركَ مع الجيش العراقي ضد العدوان الصهيوني على الجبهة السوريّة في حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣م.

*****

2 . كشفُ المسكوتِ عنهُ:

ثمَّةَ ممارساتٌ مستهجنةٌ يعزفُ عن ذكرها معظم المبدعين العرب لدخولِها في بابِ السلوكِ المعيبِ، أو الذي يشكّلُ منقصةً في ممارِسِها، ويقدحُ بشيمتِهِ عرفيّاً، واجتماعيّاً، لكونها مساوئ يرفضُها الخُلُقُ السليمُ، ولا يُحبِّذُ إيرادَها إلاَّ إذا جاءتْ تلويحاً، أو ترميزاً، وعلى نطاقٍ ضيّقٍ محدود.

لكنَّ هذه الممارساتِ المستهجنَةَ سلوكيّاً في الإبداعِ العربيِّ المكتوب في الداخلِ ليست كذلكَ في الإبداعِ المكتوب في دول المهاجر، والمنافي الأوربيَّة، فضلاً عن أنَّ بعضَ تلك الممارسات التي تستهجنُها مجتمعاتُنا تحميها قوانين تلك البلدان، وتدافع عنها بوصفِها تقع ضمن دائرة حريّة الأفراد، واختياراتِهم الشخصيَّة.

وهذا المسكوتُ عنه في مجتمعاتنا سمح بكشفهِ القاصُّ قصيّ الشيخ عسكر (هنا) في قصة (الكورونا)، وجعل الراوي الداخلي يُشيرُ إلى تلكَ

الممارسات، فضلاً عن ممارستهِ هو شخصيًا (الراوية) لبعضِها عمليًاً، واسترجاعِ صورها بجرأةٍ، وتباهٍ.

**وفيما يأتي بعضها:**

• الأمَّهات الأوربيَّات يعلمنَ بناتهنَّ ما يتعلّق بالجنس، وممارستِهِ منذ مرحلة الطفولة، فقد وردَ في الصفحة الحادية عشرةَ ما يأتي على لسانِ الراويةِ: (يقلّ الخوفُ حين أُدركُ أنَّ الأمَّهاتِ بعد مرحلة الابتدائيّة يعلّمنَ بناتهنَّ كيف يمارسنَ، ويستعملنَ حبوب منع الحمل ص ٣٧-٣٨.)

• معلّمةٌ تمارسُ الجنسَ مع طفلٍ صغيرٍ، وقد وردَ ذلك في الصفحة الثانيةَ عشرةَ: (معلّمة تُمارسُ الجنسَ مع طفلٍ في مرحلةِ الابتدائيّة.

• الزنا بالمحارم، وقد أوردَ الراويةُ ذلك في الفقرةِ الآتية من الصفحةِ السابقةِ عينِها: (وأخرى تعْلَمُ أنَّ شريكَها يُمارسُ الفعلَ ذاتهُ مع ابنتِها، فتصمتُ خشيةً من أنْ تهدمَ البيتَ فتفقد الشريكَ أبا طفلِها القادم.)

السعادة بفقدان العذريَّة، وهذا ما وردَ كذلك في الصفحة السابقة ذاتِها في الارتجاع الفنّي الآتي: (تغيبُ في الأفقِ، فأهبطُ من فوقها، فتلتفتُ أسفلَ عجيزتِها ترى بقعةَ دمٍ تختلطُ بترابِ الأرضِ الرملي الداكن، فتبتسمُ، تقبّلُني وتقولُ: لم أعُدْ الآنَ عذراء. وتعودُ تقبّلُني بعمقٍ قبلةً طويلةً تجعلُني أزهو بأنّي صنعتُ في الأقلّ شيئاً مهمًّاً ص٣٩.)

• شذوذ الرجال (اللواط ـ Gay)) وشذوذ النساء (السحاق ـ Lesbian) كما ورد ذلكَ في الصفحةِ الحادية والأربعين من القصّة في (مقدّمُ البرنامج الشهيرُ ستيف يعترفُ أنه [Gay]... والخبزُ يفاجئ زوجته وأولادَهُ.)، وكما وردَ في الصفحةِ الحادية والثمانين حينَ رفضتِ المدربةُ ياسمين

دعوةَ الراويةِ لها بالخروجِ معه لكونِها سُحاقيّةً: (لن أقدر قط، فأنا أسكنُ مع صديقتي[ [Girlfriend وهي شريكتي!... هذه المرَّة قَرَفْتُ حقّاً.. ندمتُ.. أكتشفُ أنّي أقرفُ، ولستُ حقوداً قطُّ. الذي أتيقَّنُ منه جيّداً أنَّها سُحاقيَّةٌ. هكذا يطلقون عليها في بلادِ أبي وجدّي الشهيدِ؛ يحتقرون تلكَ الأصنافَ... شواذ منبوذون.)

*****

٣ . التداعي:

قصي الشيخ عسكر مثقّفٌ شاملٌ يكتبُ الشعرَ بأنواعهِ: شعر الشطرين، والتفعيلي، وما سُمّيَ بقصائد النثر التي أميلُ إلى تسميتِها بـ[النصوص المفتوحة] فضلاً عن كونهِ ناقداً لغويّاً جيّداً، ومترجماً حاذقاً، وسارداً مقتدراً سامقاً.

ويبدو أنَّ اكتسابَهُ المعرفيَّ الواسعَ رصَّنَ استعدادَهُ الفطري، وقوَّى مخيّلتَهُ. وهذه المخيّلةُ هي المعوَّل عليها في صياغةِ الإدهاشِ، و الإثارةِ، ولعلَّ الجرجاني قد أصابَ حين قالَ عن الشاعرِ الذي له قدرة التخييلِ: (يقولُ قولاً يخدعُ فيه نفسَهُ ويريها ما لا تراه)[1]

وهنا تكمنُ المفارقة، فالخيالُ الذي هو تشكيلٌ سحريٌّ يُمكّنُ المبدعَ (على وفق رأي الطاهر) من أن يخلِقَ من أشياء مألوفةٍ شيئاً غير مألوفٍ في الفنِّ عموماً[2]، لأنَّ التخييلَ هو العمليَّةُ التي تؤدّي إلى تشكيلِ مصوَّراتٍ ليس لها وجود بالفعل، أو القدرة الكامنة على تشكيلها[3].

لهذا ركّزَ عليهِ القاص تركيزاً واضحاً في تقنيتِهِ للتداعي الحرِّ في هذه

القصَّةِ الطويلةِ، وتركَ لذائقتِهِ أنْ تكتشفَ خفايا الأشياءِ لِتصنعَ منها سحراً في البنيةِ، وابتكاراً في الصورِ، والجمعِ بين المتضادَّات.

**وفيما يأتي صورٌ من التداعي الذي شكَّلته سحريَّةُ التخييلِ، وارتبطَ بتقنيةِ الراوي البطل:**

١. فحين يذكرُ الراويةُ (ص٤١) أنه رضخَ لإلحاحِ والدتِهِ للسفرِ إلى برمنغهام لاستقبالِ خالتِهِ، وابنتِها لؤلؤة، يقودنا إلى السردِ الآتي: [أتركُ وجهي في المرآةِ وألتفتُ إلى المذياعِ كأنَّني أبحرُ مع مشاهدِ حيَّةٍ أمامي: كورونا، العدد الإجمالي للضحايا يصل ٨٠٠، والصينُ تخصِّصُ عشرةَ مليارات لمكافحةِ الفايروس، العاصفةُ تبدأُ بعد الظهر، مع احتمال تساقطِ ثلوجٍ في مناطقَ يورك شاير، قتيلانِ في الناصريَّةِ جنوب العراقِ، العدد يصلُ إلى ألفِ قتيلٍ، ومتظاهرو بغداد يحرقونَ دميةً للرئيسِ ترامب. يبدو أنَّ العالمَ في سباقٍ محمومٍ، الكورونا في الصِّين، والمظاهرات في العراق، الناصريَّة تسابقُ الصِّين، أعودُ إلى النكتةِ السمجةِ القديمةِ: هل مدينةُ جدِّي شجرةٌ خبيثةٌ كما تقولُ النكتةُ؟.]

ولو أمعنَّا النظرَ مليّاً في سردِ الراويةِ لاكتشفنا أنَّ هذا التداعيَ الغريب لم يكن ليأتيَ لولا قدرةِ القاصِ على دمجِهِ بالسردِ الوصفيِّ على نحوٍ متلاحقٍ، وهنا تكمن المفارقات، فالصينُ فيها ٨٠٠ إصابة بالكورونا، لكنَّ احتمال سقوطِ الثلوجِ في يورك شاير واردٌ، بينما يقتربُ عددُ شهداءِ التظاهرات في العراق إلى ألفِ شهيد، والناصريَّة تسابق الصين، بينما بلغ عدد شهدائها في ذلك اليوم اثنين فقط، ومع ذلك فهو يتذكَّرُ النكتةَ

السمجةَ عن الشجرةِ الخبيثة.

١. وفي أثناء سردِ الراوية لحادثِ الشجارِ الذي وقع بينه وأحد التلاميذ المتشدِّدين المغاربة في الصفحات: ٥٤ -٥٥ بسبب عدم صيام الراوية في رمضان، فإنَّ التداعي يأخذُ منحىً مغايراً يمتزجُ فيه الواقع بالحلم، فحين كانت (كريستي) صديقة البطل / الراوية حسن شجاعةً في واقعها المعيش، فتندفع نحو المغربي الذي أمعن في شتم حسن، وتضع يديها بصدرهِ وتدفعهُ بقسوةٍ لبوةٍ، فيسقط على قفاه قبل أنْ يصلَ إليه حسن، فإنَّها تهربُ في الحلم، وينوبُ عنها في الدفاعِ عنه العمُّ محسن طفيل بهراوتهِ، فيهوي بها على رأسِ التلميذِ المغربي، ومثلُ هذا التداعي غير المبرَّرِ يجعل السردَ أكثرَ جمالاً لمخالفتهِ للواقعِ، وانحيازهِ للحلمِ: (... اختفت كريستي، فاجأتني بهربها. هربتْ حالما وجدتْهُ يتقدَّم نحوي.. تلاشت، فنهضتُ. في تلك اللحظةِ برزَ من مكانٍ ما كمقاتلٍ شرسٍ بعينينِ تقدحانِ شرَراً جندي كان ينتظرُ بصبرٍ داخل كمينٍ عدوَّاً انتظرهُ منذُ زمنٍ طويلٍ، هو بعينِهِ العم محسن طفيل (...) وجدتُهُ يحملُ هراوةً فيهوي بها على رأسِ التلميذِ المغربيِّ.. المدرسة فارغة، كريستي هربتْ.. التلميذُ يترنَّحُ، يهربُ، يلحقه العمُّ محسن... أُراقبُ المشهدَ عن بعدٍ.. لحظات، ساعات... يختفيان... لحظتئذٍ أنتبهُ على صوتٍ ناعمٍ يُعلنُ وصولَ القطارِ إلى محطَّةِ برمنغهام...، فأرمي آخرَ حلمٍ لي من مخلَّفاتِ البارحةِ، وأهبطُ.)

٢. وفي الصفحة ٣٩ يقودُ التداعي البطلَ الراويةَ إلى تذكّرِ لُهاثِهِ الجنسي مع كريستي في الوقتِ الذي كان يصطحبُ ابنةَ خالتهِ الضيفة

لؤلؤة لمجرّدِ أنَّهُ مرّ بالأمكنةِ التي جمعتْهُ بكريستي، فتتداخلُ أخيلتُهُ بالواقعِ المعيشِ لحظتها، فتتشكّلُ صورٌ تمزجُ الواقعَ الراهنَ بالقديمِ الذي يسترِدُّ ما كان من شبقٍ مارسهُ مع كريستي مرّات عديدة على نحوٍ يذكّرنا بمصطلح (تيّار الوعي) الذي اجترحه (وليم جيمس) وخصّ به تقنية المونولوج الدرامي.

وقصص تيّار الوعي تتداخلُ فيها المشاعرُ، ولا تكونُ الأفكارُ فيها مترابطةً في الأعمّ الأشمل، مع كونها تعتمدُ أسلوبَ الانسيابِ المتواصلِ للأفكارِ بحيثُ يختلطُ فيه ما هو ذهني بما هو باطني: (.. اعترضنا حاجزٌ صخريٌ، فملتُ عليها أسندها بذراعي. كتفها يلاصقُ كتفي، خشيتْ أنْ تنزلقَ قدمُها فقبضتُ على زندي بيدها... كانت كريستي تسابقني، تجري أمامي.. ألحقُها، تطلبُ منّي أنْ أُقبلَها.. أحياناً أتخيّلُها غزالة تشردُ.. وفي الفراشِ بعدما صرختْ ولم تعدْ عذراءَ، رأيتُها بصورةِ لبوةٍ.. نمرة تفترسُني فأرتاح، أجدُ العالمَ جميلاً مثلَ أحلامِ زرقاءَ تحلُّ في لهاثها.. على مهلكِ اعتبريها رياضة... في الإمارات أُمارسُ مع صديقاتي رياضةَ التزلّجِ على الرمال..

أعرفُ أنَّ دبي استنسخت العالمَ كلَّهُ: طبيعةً، ومتاحف، ومسارح... كلّ شيء (...) راحت برمنغهام تنبسطُ تحتَ نظرنا، تمتدُّ، وتمدُّ يديها كأنّها ترحبُ بنا.. والغابةُ عن جهةِ اليمينِ تضفي على المشهدِ بعضَ الجلالِ.. وثمّةَ التلّةُ، وقطرات الدمِ التي تلاشتْ تحتَ المطرِ والترابِ، الرغبةُ تحاصرُني، كريستي تعصُرُني بينَ فخذيها، أمّا في البيتِ وقد دخلنا غرفتها فترتقي بعضَ الأحيان فوقي، وتدعكُ حنكي بشعراتِ شقراء

ناعمةٍ غضَّةٍ نمتْ بوقتٍ قريب، وتروح تلعقُ جسدي، لكننا افترقنا بعد الصفِّ التاسعِ، اختارت قسمَ الميكانيك، وظهرَتْ فتيات أُخريات في حياتي مثل أيِّ طلاب ثانويَّة.)

*****

وبعدُ، فلعلَّ هناك زوايا أخرى غير التي وقفتْ عندها قراءتنا هذه، قد يجدها غيرُنا من النقاد الكرام حريَّةً بالتناولِ النقدي، وجديرةً بالتحليل، والتفسير، والتقييم، والإشادة، فزوايا النظرِ مختلفة، والظواهرُ الفنيَّةُ عديدة، فليس ما تناولناه منها هنا هو كلُّ ما فيها، لذلكَ أقتُضيَ التنويه.

## إحـــالات

(١) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تح: هـ. ريتر، مط المعارف، استنبول، ١٩٥٤ (بدلالة د. محمّد لطفي اليوسفي [الشعر والشعريّة ]٣٤١، أوربيس للطباعة والنشر، تونس ١٩٩٢م.

(٢) ينظر: في النقد الأدبي الحديث، منطلقات وتطبيقات: د.فائق مصطفى، ود.عبد الرضا علي، ٣٧، ط٢، دار الأيام للنشر والتوزيع – عمّان / الأردن ٢٠١٤م.

(٣) يُنظرُ: في النقد الأدبي، دراسة وتطبيق: د. كمال نشأت، ٢٨، مط النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٠م.

# ١

لكنني

سألتقي الآنسة ياسمينة.

ذلك يحدث بعد أسبوع من ظهور الوباء الجديد.

كورونا..Covid19

هكذا نطقت مذيعة النشرة الكلمة.

الشرق يعود إلى الواجهة مرة أخرى، والصين التي عرفتها بعدة وجوه تتصدّر الأخبار بِشَكْلٍ مُرِيب، أمّا في هذا اليوم بالذات وهو أوّل يوم أباشر فيه عملي الجديد، فقد وقفت أمام المرآة ألقي نظرة على وجهي وأُصَفِّف شَعري من غير مبالغة ولن أُطْلِيَه بالجِلّ ليبدو ذا بريقٍ كما فعلتُ قبل بضعة أيام أتأمّل وجهي، أعدّل هندامي، وربطة العنق التي لا أرتديها إلا في بعض المناسبات.. شأن أيّ طالبِ عملٍ يحضر مقابلةً أمام لجنةٍ تتمعن في لباسه ومظهره..

ستكون بقية الأيام عاديَّةً لا رونق فيها..ولا يهمّ شكل الهندام الذي أرتديه اليوم.

وجوه جديدة لعاملين وعاملات يصبحون مع مرور الوقت من زملاء مهنة إلى أصدقاء.

بلا شكّ لن ترتاح لبعضهم. مثلما هي الأخبار التي تحمل إلينا السعادة والكوارث...

وفاة شخصين والسلطات الصينيّة تعلن حالة الطوارئ وتوجّس لدى الغرب من أن يكون هناك تستّر على المرض.وزارة الخارجية تحذّر البريطانيين المقيمين في الصين.الأمور تلوح لي من قريب أو يعيد مريبة إلى حدٍّ ما.. هاجس غير مريح.. بعضُ الخوفِ يلوح.. هاجسٌ أوْ ريبةٌ ما.. مع العلم أنّ لمذيعة النشرة حلاوة لسان تفوق أيّة لُكْنةٍ أخرى في المملكة المتحدة على وفق تصوري.لم أرها لكنّي أعترف – وأنا أُنصِتُ إليها عند الصباح – أني أجدها أكثر قربا إلى نفسي من مذيعات التلفاز.

أرسم صورتها في ذهني، وجه مدوّر، عينان لَمّاحتان متوسطة، ذات ابتسامة لا تغيب. هكذا تلوح لي، ولَمّا أبتعد عن المرآة بعد.

لا يهمّني أن أعرف اسمها.

لا بد أن يكون الأمر جللا، وأنا أخطو أوّل خطوة للعمل في حياتي.

عليَّ أن أصل في الوقت المعلوم، وأباشر مع هؤلاء المصنّفين ضمن عوق أسبارجر.

عدوانيين إلى حد ما...

عنيفين بشكلٍ غير متوقع...مع ذلك لابدّ من أن نحبّهم ونعاملهم بلطف.

قال السيد إيفان مدير مركز "حقل الزعفران" لذوي الاحتياجات مرحبا بك نحن حقًّا نشكو من نقص في المختصين ستباشر عملك مع السيد كالم إلى أن تلتحق مسؤولتك المباشرة جاسمينه!

لا أدري لِمَ أمتلك حاسة قد لا تخيب تجاه الآخرين ظننت السيد إيفان اليوناني – منذ أوّل لقاء– مجرد صورة. واجهة لا أقلّ ولا أكثر، أمّا كلّ

شيء يخصّ المركز، فهو بيد السيدة كيلي مكنزي المساعدة التي أجرت المقابلة معي من قبلُ يومَ طليتُ رأسي بالجِلّ وارتديت البدلة ورباط العنق.. قدّمت لي المنهاج وقانون العمل: مؤكد أنك درست البسايكترسك وطبّقت عمليا في مدرسة تلّ الوردة الخاصة حسنٌ راجع المعلومات وإن كان هناك من شيء فبإمكنك أن تسألني مباشرة.

– متى تأتي إذن ياسمين؟

– إنها في إجازة مدّة أسبوعين بقي لها منها أسبوع.

خرجا فسمعت صرخة، أعقبها ضجيج في الممرّ، وتناهت إلى أنفي رائحة قلي من المطبخ، قد تكون مسؤولتي ياسمينة من الهند أو الباكستان. الاسم شائع عند الاوروبيين. أختي المتزوجة في السويد تقول إنها تعرف الكثيرات من السويديات يحملن اسم ياسمين، خفتت الزعقة،

غادرت مقعدي إلى العارضة أتطلع في صور الموظفين وأسمائهم. Jasmine بيضاء صافية البياض في الثامنة والعشرين ذات شعر أسود. ابتسامة يزينها بريق. ملامحها لا تدلّ على أنّها من باكستان أو الهند.

ليس هو الوجه الذي رسمته لقارئة الأخبار في المذياع أو مذيعات القنوات اللائي أطلّ عليهن بعض الأحيان. كلّ ما أعرفه عنها بعض الشذرات من العاملة الجامايكية التي قالت إنها تعمل برشاقة النحلة، وصبرٍ من دون شكوى، وأني محظوظ كوني أعمل معها إذ كثيرا ما تتجاوز عن بعض الأخطاء، وتنذر أكثر من مرة ولا تعاقب إلا في الحالات القصوى. أما صديقي الجديد كالم فقال إن جاسمين طيبة القلب على النقيض من كيري مكنزي الوصولية التي وضعت في بالها أن تزيح

المدير وتحلّ محلّه في يوم ما!

ليس هناك من شيء آخر.

لكن لِمَ يلفظ الجميع اسمها بالجيم؟ على أية حال سأقابلها بعد أسبوع. تلك ليست مشكلة كبيرة لموظّف جديد يباشر العمل في مؤسسة تُعنى بذوي الاحتياجات الخاصّة. لاحرية لنا في أن نختار أسماءنا وأنا شخصيًا لو خُيِّرتُ لفضّلتُ التعامل مع النساء على الرجال. أجدهن حنونات. يمكن أن يغفرن.. يصبرن.. يعفون وإن كنّ وصوليّات كالسيدة كيلي مكنزي مع ذلك أبدو أحيانا لا أحبُّ أحدا ولا أكره أحدا. موقف يصعب علينا أن نجد أنفسنا نميل فيه إلى أيِّ اتجاه.

أنهيت تصفيف شعري وترتيب هندامي.

كان المذياع يثير اهتماهي بالخبر الجديد.

ضحيتان لحد الآن.

والخوف من موت قد يكتسح العالم بسبب فايروس غريب الشكل أشبه بتيجان الملكات والملوك.

الصين تعلن حالة الطوارىء.

المذيعة تدخل في تفاصيل أخرى ضرورية: الصين مليار ونصف يأكلون كلّ شيء إذ المرجح أن يكون فايروس كورونا ناتجا عن نوع خاص من الفئران وهناك ظنّ يميل إلى بعض الخفافيش.

المطبخ الصيني ثانية.every thing possible

تطلعت بوجهي في المرآة وتمتمت ممكن لاغرابة في الأمر.

وكنت أغادر.

## ٢

بسط السيد كالم يده مرحبا بي وقد ظنني أوّل ما وقع بصره عليَّ من إيران.خلال أسبوع من التنسيق معه في العمل وجولاتنا مع الصبيّ الأسبرجر تايرون عرفت منه أنه شيوعي. إسكتلندي درس اللغة الإنكليزية في جامعة نوتنغهام، والغريب أنه جاء من إسكتلندا إلى نوتنغهام بلكنة غريبة والآنَ لا أحد، حسب قوله، يجد صعوبة في فهمه. أحيانا في فترات الاستراحة يثرثر. يظنّ نفسه يعفّ عن السفاسف ويذكر الأمور الجديرة بالاهتمام. يتحدث عن زيارته لإيران وإعجابه بشارع الثائر بوبي ساندس. تصوّر بوبي ساندز له شارع باسمه في طهران، يقول ذلك، ويتساءل بعفوية أيٌّ من الدول الأوروبية أطلقت اسم الثائر بوبي ساندس على أحد شوارعها. إنَّ هذا إنجاز جدير بالاحترام... ياسيدي أنا في الأصل عراقي جذوري من الناصرية. وإن ولدت عام١٩٩٩ في برمنغهام. جدّتي رحمها الله جاءت بوالدي إلى بريطانيا تذكر لي وكأنها تفتخر أكثر مما تسرد واقعة حقيقية أن جدّي أول شهيد يسقط في الجولان عام ١٩٧٣ في ذلك الوقت كرّمنا الرئيس السوري ببيت، فاعتذرنا، قلنا له نشكرك ياسيادة الرئيس عندنا بيت في العراق، حينها كان عمر عمّتي ثلاث سنوات أمّا أبي فلم يتجاوز سنته الأولى بعد.

لقد أصبحت جدّتي تحمل وحدها ذلك العبء الثقيل.

الأمّ والأب في الوقت نفسه...

لن أتحدّث بكلّ التفاصيل فليس علي أن أثرثر بماضٍ لم أكن شاهداً ولا مؤثّراً فيه ولا أحبُّ أنْ أُمْعِنَ في الحديث عن أحداث تخصّني وجدي للسيد كالم اليساري الطيب القلب.

سألته بخبث:

– هل سمعت بأخبار كورونا اليوم؟

فقطب حاجبيه:

– هذه حملة إمبريالية وسخة.

– قد أتفق معك لكن الصين اعترفت بانتشار الفيروس؟

– الصين مليار ونصف ياصديقي اليوم مات اثنان، ومن قبل سارس. الرأسمالية دائما تضخم الأمور ألَمْ يدّعوا من قبل أن أصل مرض نقص المناعة من إفريقيا.

– ياصديقي العزيز خلال الليل أتابع التلفاز تشدّني برامج الموسيقى والرقص على الجليد، وفي النهار حالما أستفيق عيناي على مرآة الحمام أنظف أسناني، وأتمعن في وجهي أما أذناي فمشدودتان إلى المذياع الذي احتل فيه كورونا الخبر الأوّل وذلك ما أثار شكوكي.

فردّ بلا مبالاة كأنّه أمام نبأ مفتعل:

أظنّ أنّك ستسمع في الليل الأسوأ.

لا أستغرب..

أجد نفسي في تناقض.. تعجبني أشياء كثيرة تأتي من الصين:

الأقمشة، البدلات الأنيقة، أجهزة الكهرباء والألكترونات، أسواق بريطانيا تغصّ بصادراتٍ تلصق عليها عبارة made in china، وحين تسأل أيّ صاحب سوبر ماركت عن رغبتك في سلعة أوروبيّة يمكن أن تكون الأفضل يقول لك: الصين عام ٢٠٠٠ ليست هي عام ١٩٦٠، كالآخرين أرتاح.. أنتعش لكلّ ما هو ناعم وجميل يأتي، ويرعبني عالم الغموض والخفاء.. فايروس يقطع مسافات طويلة خلال دقائق ليحطّ داخل جسدي فما الذي يجري عام ٢٠٢٠:

يبدو لي أن موجة رعب جديدة بدأت تجتاح العالم.

أو على وشك...

كلّ ما أعرفه أن جنون البقر خرج إلى العالم من إنكلترا فأحدث وقتها ضجة خَفَتَتْ ساعةَ رأينا رئيس الوزراء (توني بلير) يلتهم البرغر في أحد المطاعم، مِنْ بَعْدُ جاء السارس وقبلهما الآيدز الذي شَغِلَ الدّنيا وأثار الرّعب ثُمّ تلاشى وَنَسِيَته ذاكرة العالم. وليس ببعيد أنْ يطلّ علينا، فجأة، في يوم ما داء جديد أكثر فتكا من الطّفيليّ الثقيل covid19. اليوم كورونا وغدا تخرج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي فيتغيّر لون جواز السّفر وتتناسل العملة ببريق آخر!

وقد يصل الفيروس إلى بريطانيا.

– ياصديقي لو عبر القنال وتوغّل في العمق فإنه لن يصل إلى قصر صاحبة الجلالة، ولن تصاب الملكة بسوء. انظر إلى ملكة هولندا تخلّت عن العرش، وملك أسبانيا خوان كارلوس، إنّها جاوزت التسعين، تظنّ نفسها ظلّ الله، غنيّة، ولديها أملاك في كندا وبلاد أخرى أظنّها سوف

تدفع رشوة إلى عزرائيل much money she will pay bribe ...

قالها وقد أدركت أنه يقابل كلّ شيء بعض الأحيان بِسُخْرِيَةٍ مُرَّةٍ لا يعيها الآخرون ربّما لا يبوح بها لأحد سواي.

## ٣

يُخَيّلُ إليّ أنَّ كثيرا من الأمور تبدو غريبة لي ومألوفة..

في كثير من الأحيان..

بعيدة عنّي وقريبة مني.

قد أجد علّة لهذا التداخل الغريب كوني ولدت في أوروبا.

ولعل السبب يعود إلى جدّتي التي اكتفت بحرب واحدة فقط، ولم تغامر بأخرى. كانت تفخر ببطولة جدّي في حرب أكتوبر حين نفدت ذخيرته فهبط من دبابته ولجأ إلى السلاح الابيض.

كان أوّل شهيد يسقط على الجولان.

- عراقي...

تقولها بحماس وتؤكد بزهو:

- أول قتيل شهيد يسقط في الجولان عراقي من أهل الناصريّة..

ولا أشك أن جدّتي فتنة عبد الله كانت على صواب يوم تركت المغامرة بحرب ثانية. أعني حَدَثَ الانتفاضة الذي تكاد لا تنساه وتنقله عبر أحاسيسها وانفعالاتها وكأنّه مازال يحدث هذه اللحظة... صور عايشتها، وربّما قصّت علينا اليسير منها وأخفت الكثير الذي تراه يثير الخوف فينا. والحقّ إنّي وهذا ما لم تُدْرِكْه جدّتي،أغتنم بعض الأحيان الفرص مع أخي صبيح أو وحدي فأتابع قنواتٍ تعرض رُعباً يكاد يثير الهلع في النفوس أكثر مما توحيه حكاية حَقِيقيّة عن قتالٍ وموتٍ يحدث

بين الجنود بالسلاح الأبيض. أمّا والدي فقد أطاعها طاعة عمياء وتعلّق بِهَا بِشَكْلٍ مُذْهِلٍ، فأصبحت له الأمّ والأب في الوقت نفسه، والمثال الأعلى في كلّ شيء. وقد راهنت على الزمن يوم اندلع العنف بعد انسحاب الجيش من الكويت. بكلّ جبروتها وقوّة شخصيتها عجزت عن أن تمنع الشاب المغامر ابنها من النزول إلى الشارع الهائج فخرج مع من خرجوا. فتى راوده الطيش وهو في العشرين من عمره فجأة جاءت المأساة بالخراب والدمار، فَعَزَّ عليها أن تخسر ابنها بعد فقدان الزوج، فوضعت يَدَها بيد عمّتي، وصرخت من دون تردّد:

– هيا لنهرب مع الهاربين!

وسأل أبي:

– إلى أين!

– مع هؤلاء... مع هؤلاء إلى أيّ مكان!

وَجَدَتِ النجاة في الهرب وحده والأمان. ليس هناك من سَبِيلٍ آخر.. تركتِ البيت وكلّ ما تملك فدخلتْ رفحاء مع الداخلين، وانتظرت مع المنتظرين، كانت هي اللولب الذي يدير حياة ابنها وابنتها. زوجّت عمّتي من عراقي يسكن السويد، واختارت لأبي بنت أختها المقيمة في الإمارات، ولم تكن أُمّي أكثر من مُدَلَّلَة عند السيدة الكبيرة التي لم تكن لتستقر في بلد معين لا لضجرٍ من البيت، فهي خالة قبل أن تكون حماةً، بل لطبعٍ فيها. تسافر إلى السويد، عند عمّتي أيّاما، تأتي شهرين أو ثلاثة تبقى معنا ثُمَّ تسافر إلى أقارب لها يسكنون المانيا. وتشدّ الرحال بعدئذٍ، فتزور ضريح السيدة زينب بدمشق، ولا تنسى أن تمرّ على مقبرة

الشهداء حيث قبر جدّي. وكأنها إذ اطمأنّتْ على عمّتي وأبي وجدتْ ضالتها في السفر المتواصل.

أو تريد أن تنسى.

تجدُ الجلوس الطويل يَشِلُّ حَركَتَهَا..

ولو كانت حاضرة في بريطانيا يوم سقط النِّظام لما تجرَّأ أبي على السفر إلى العراق. اغتَنَمَهَا فرصةً أن تكون في ضيافة عمّتي واتصل بها عبر الهاتف يبلغها عن سفرتِه الأخيرة..

ولعله وجد حريته في غيابها.

يطيعها ولا يخاف منها.

يخجل... يستحي.

إذا كَذَبَ اكْتَشَفَتْ كِذْبَتَه من عينيه، وإن أخفى عنها شيئاً ما أيَّ شئ عاد وَكَشَفَهُ لها بوازعٍ من ضميره.

احترام مفرط وطاعة بلا حدود.

قال لي جدتك تخشى عليّ منذ استُشهِدَ جدّك. أنا عندها مثل جوهرة تحفظها في زجاجة.. هل تفرِّطُ بي؟ لا أنكر أنّي اندفعت خلال الانتفاضة شأن الشباب الآخرين فأنا على يقين أنّي لو لزمتُ البيت وقت الفوضى تلك لما رحلتْ جدتك بنا إلى هذا البلد.. لقد خَشِيَتْ أن تنقطع سلالة جدّك باعتقالي وقتلي.. الآن انتهى النظام، ولا خوف عليّ.. الذي يهم أبي البيت في الناصرية، بيت أبيه، وبعض الأملاك، والأهمُّ من ذلكَ كلّه وثائقُ وَحِفْنَةُ مستمسكات وذكريات. لابدَّ أن نأخذ حقوقنا. حالة مِنَ الخَوْفِ والرّعب والغضب جعلتنا ننسى، وننسى... ودقائق صعبة انمحت

خلالها ذاكرتنا، فتركنا كثيرا من أشياء نجد الآن أنفسنا ناقصين من دونها.. كان يسمع من الآخرين أن الوضع الجديد سيمنح من هرب وَهُجِّر وَدَخَلَ رفحاءَ حقوقا وامتيازات ورواتب فتستفزه الأخبار الجديدة والذكريات فيصدّق ما يقال، وبعد أسبوع من الاحتلال الامريكي سافر أبي يبحث عن بعض أملاك فقدها وبيت.

وفي حلمه الجديد: أن يصحب معه مستمسكات رآى نفسه فيها تكتمل وصور جدّي الشهيد. أشياء ربّما تبدو تافهة لمن يسمعه يتحدث عنها، وتعني الكثير عنده.

بعض ماضيه الضائع.

لكنه لم يعد.

قتل في أحد الانفجارات.

وبقيت أمّي تقول والله لو أطاعنا والدك ولم يذهب ماذا استفدنا من العراق؟

## ٤

في الليل اتصلت بوالدتي التي كانت ترفض من حيث المبدأ العمل في نوتنغهام.

بُعْدِي عنها بضعة أيّام في الأسبوع جعلها لا تخفي تذمرُهَا كلَّما حدَّثْتُنِي في الهاتف.

تظلّ تتذمّرُ وَتَشْكُو

أخي الأكبر صبيح أنهى الثانوية ثمّ تزوج من فتاة أرجنتينية الأصل، وغادر معها إلى لندن يعملان في مشاريع سياحية. بان الانشراح على وجوهنا يوم بعث لنا عبر النت بصورٍ، وتسجيلاتٍ لشهرِ العسل من بوينس آيرس في بيت عمّه والد زوجته.. أختاي الكبرى رحلت مع زوجها إلى استوكهولم والصغرى، بيتها قريب من سكننا في برمنغهام. أمّي تَخْشَى بعد عمر طويل أن نقذفها في دار للعجزة. وربما تخاف من أن يقتحم عليها البيت ذات ليلة لصٌّ فيذبحها. وعلى الرغم من طيبة صهرنا وعَرْضِه السكن معهما إلا أنها رفضت.

تأنف!

تشعر بالحرج حين تعيش في بيت صهر!

ولو كان زوج أختي عراقيًا لتلقى الجواب ذاته..

أما أنا فما عليَّ إلا أن أتبع مايحقق مصلحتي. بعد تخرّجي في قسم البسايكترسك وجدت فرصةً للعملِ في نوتنغهام. وظيفة ذاتُ ربح بوجهٍ

إنساني.. أختي ماجدة تضحك وتستغرق في القهقهة.

تسخر..

تضع إبهاميها عند صدغيها وتزعق وهي تُفرط في الضحك. الساعة بأكثر من عشرة جنيهات، وستقضي عمرك مع المجانين، وفي النهاية حسب المثل من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم أراهنك على أنّ المسألة مسألة وقت.

تسنفزني. فابتسم:

– والله كلامك صحيح لكنّ لديّ مناعة والدليل أني عشت معك!

تلك الليلة استمرت أمّي في شكواها شأنها كلما ردت على أيّة مكالمة لي. يا حسن تركتموني وحدي. هذا جزاء التربية؟ كيف يهون عليكم؟ أنت آخر العنقود.. ليت اللصّ يرضى بالنقود وحدها.. القتل.. الذبح.. كم عجوزاً وُجِدَتْ مقتولة في بيتها.. لو كانت جدّتك حيّة لما شعرت بأيّة وحشة... طلبت مني أن أكون عندها خلال عطلة الأسبوع، ووعدتها وفي بالي أن أختلق عذراً ما.. أيّ عذر كان، على الأقل آمُلُ أن أقضيَ شهراً بكامله لا أغادر نوتنغهام. مستقبلي قَبْلَ كلّ شيء، وهذا أوّل يوم لي في العمل. أوّل يوم لانطلاق فايروس جديد من الصين.

يوم ينذر برعب قادم حقا.

قد يتحمّل البشر القتل وصنوف الأسلحة الفتّاكة، أمّا أن يحاربهم شيء لايرونه، يداهمهم فجأة... وقبل أن أغلق الهاتف فاجأتني بخبر جديد.

اتصل بزوج عمتك وخذ من خاطره فقد قُتِلَ ابن أخيه في تظاهرات

الناصرية اليوم!

مجرد أخبار ألتقطها من بعيد.

أسمعها.

أتفاعل معها وقد لا أنفعل.

كان والدي يصحبني بضع الأحيان إلى المسجد في برمنغهام. أصلي معه. يريد أن يترك في نفسي بعض آثار الشرق. لايجبرني قط.. ولا يتدخّل في شؤون أختينا.. يرى أن لكلّ جيلٍ طباعه وخصوصيته.. أَحْضُر أنا وأخي معه مراسم عاشوراء، والعيد. أحيانا أراه يدخل مزاحا مع أصحابه في المسجد أو خلال التبضع من المحلات الشرقيّة. أسمع بعضهم يردد الشجرة الخبيثة. قلت إنَّه مزاح. وحين أسأل أمي أو جدتي عن معنى الشجرة الخبيثة تقولان.. سفاهة. هؤلاء سفهاء.. دائما السّفهاء يتّهمون العقلاء بأوصاف ناقصة.. ثم أدركتُ أنَّ هذا لمز على أهل الناصرية بلد أبي وجدّي. أيّة نكتة سمجة مع أبي أو مجاملات ثقيلة من بعض زبائن المحلّ.. لِيَكُنْ كلّ طرف ينظر إلى الآخر على أنّه مثله، يردّ أبي على سؤالنا أنا وأخي: الناصريّة أمّ السياسة.. الحزب الشيوعي خرج من هناك. التنظيم الإسلامي. البعثي.. نحن فقراء لكن مثقفون.. كلّ التيارات والأحزاب خرجت منا.. وبالمزاح والنكتة يرى الآخرون أن هذا هو سبب بلاء البلد.. الطامة الكبرى من هناك. فهد.. الركابي. الرفاعي.... أسماء تمرّ بي فلا أُعيرها أيّ اهتمام..

ترسخ في ذاكرتي أو تزول بعد بضع دقائق.

أحداث جرت وأنا لم أُولَدْ بعد..

وأناس عاشوا وماتوا في بلد آخر مازال جيل أبي يتحدّث عنهم، وفي سَوْرة غضبٍ من أحدهم قال لشريكه في المحلّ الحاج محسن الطفيل: والله إن أساء أيُّ أحد لي عن قَصدٍ فسأعلّمه حقّا كيف يكون الخبث!

لكن ماذا عليّ أن أفعل أنا المولود في بريطانيا لأبوين جاءا من الناصرية؟ زوج عمّتي نفسه كان يعارض التظاهرات الأخيرة التي انفجرت قبل وباء كورونا. آخر حديث كان في نوتنغهام. ضغطت أمي على مايكرفون الآي باد لأشترك معهما حول أحداث أجدها بعيدة عن طِرازِ حياتي. تبدو بنظري تافهة أكثر مما هي قبيحة.. كان يقول إن المظاهرات الأخيرة حدثت بتحريض من أمريكا.. الأفعى أثارت الشارع على رئيس الوزراء بعد عودته من الصين. الاتفاقية ستبني لنا محطات كهرباء وتعبّد شوارع.. تؤسس مجاري.. مشاريع تماطل فيها أمريكا تنجزها الصين بعام، مرّ أربعة عشر عاما والعراق من دون نور أو ماء حلو.. لا شوارع.. لا نظام. فوضى.. كان زوج عمتي يكره الحكومة لكنني أجده مثل زميلي في العمل كالم ينطق بكلام لا أستطيع أن أفنّده.

على الرغم من ذلك فلا بدّ من أن أتصل به، أواسيه وقبل أن أتحدّث معه عليّ أن أعترف أخيرا أن اليوم مرعب حقا يكاد على الأقلّ حسب تصوّري لا يخلو من مسحة من الجمال.

## ٥

وأقف شأني كلَّ يوم أمام المرآة.

سبعة مصابين بفيروس كورونا.

اثنان بريطانيان واليابان تحجز باخرة على متنها رعايا انكليز.

يستفزّني خبر آخر:

سقوط خمسة قتلى في الناصرية ومجمل العدد يصل إلى ٥٢٥

كان حديثي مع زوج عمتي مقتضبا. لقد تغيّر تماما. إنَّه الآن يفكر كيف يساعد أقاربه على الهجرة. يبحث عن طريقٍ خَفِيٍّ يوصلهم إلى برّ الأمان.. ليتركوا كلّ شئ ويغادروا.. لم يعد هناك من شئ نأسف عليه. يتبع طريقة جدتي قبل ثلاثين عاما. سمعتها، حين يبلغ التذمّر بها مداه، تكرّر: الخارج من العراق مولود والعائد إليه مفقود. وأظن أن أبي كان أوّل ضَحِيَّة تصبح عبرة لمن يعصي حكمتها الأثيرة.

أسمع الأحداث فأشعر بالأسف.. ليس هو بحزنٍ حقّا ولعلّه أكثر بقليل من أسفي على خيبتي في الامتحان أو خسارتي لسباقِ تحدٍ تقيمه المدرسة..

لا أبالغ إذ أصِفه أسفا..

انزعاجا.. ليس بيدي حلّا سحريّا وأجد أن جدّتي وأمّي كانتا على حقٍّ حين تركتا الماضي خلفهما. كانت جدّتي ترى مستقبلها مع ابنها وابنتها وأمّي لا تحبّ، مادمنا معها السفر إلى أيّ بلدٍ لكنْ لا أتصوّر الطمع دفع

أبي فراح يلهث خلف مكسب عابر أو نزوة ما. لعلّه يرى نفسه صاحب حقّ ضاع ذات يوم وسط فوضى عارمة وقد ظلّ يتحيّن أيّة فرصة يجدها مناسبة ليستعيده. كان يتحاشى قدر الإمكان هو وشريكه الحاج الطّفّيل أيّ نقاشٍ مع الزّبائن حول السياسة ومايجري من أحداث هناك ويتجاهل من يندفع بحماس مفرط فيمجّد زعيما ما أو رئيس دولة، ربما يشعر بالضجر حين أتحدث أنا وأخوتي باللغة الإنكليزية. نجدها معنا في المدرسة والشارع. في النوادي الرياضية، والمسابح. دور السينما. المسرح. برمنغهام تغص بالمسلمين، والتعاونية العربية الإنكليزيّة تجد مكانا في مبنى البلدية يتعلّم فيه الأولاد اللغة العربية. ثلاث ساعات يوم السبت. أجدها ثقيلة...

ضجر..

تأفّف..

وقتٌ يُفْسِدُ عليَّ عطلةَ نهايةِ الأسبوعِ وساعاتِ التّرحلقِ على الجليد. ذهني لا يتوافق مع الفاعل والمفعول. وضرب عمرو زيدا. من هو عمرو ومن من هو زيد ولماذا يضرب أحدهما الآخر.. كثيرا ما نغتنم الفرصة فندير التلفاز على القنوات الإنكليزية.

X factor

British god talent

Shyn the singer will win

Dancing on ice

أرطن مع أختيّ وأخي: أراهن أختي أن الرّوسية الراقصة على الجليد

ذات البدلة الزرقاء ستفوز هذا العام. الرّوس أفضل العالم في الرّقص على الجليد. في المدرسة أيضا يتوقع معظم التلاميذ فوز الرّوسية، ونختلف فيمن يفوز في مسابقة أكس فاكتور، أمّا حديث الثّلج فَيَسْتَفِزُّني:

يثيرني.

أكاد أجرّبه.

أمّي تستنكر:

– أخشى أن تقع فتنكسر يدك.

أغرق في الضحك وأعترض:

– لو طبقنا هذه القاعدة لَأَعْرَضَ الناس عن جميع الرّياضات فلا كرة قدم ولا سلّة ولا تزلج على الجليد، والدورة الأولمبيّة. سنلغي العالم كلّه!

– لسان طويل والمصيبة بلغتين!

ويعقّب أبي:

– دعيه يجرب صحيح ليس كل من يفعل ذلك يقع وتنكسر يده!

ويمد يده إلى الريموت كونترول، فيغيّر إلى محطّة mbc أو العربية وأجد أمي لا تكتفي بالتذمّر: قرفتمونا.. وجدتي تضحك وتتساءل بماذا ترطنون.

الماضي مازال يتطفل.

لا يزعجني.

حقّا أراه جميلا في بعض جوانبه..

مُشْرِقاً..

أحيانا.. نضحك من جدتي حين نوضّح لها أنّي أتوقّع مثلما يرى

تلاميذ المدرسة أن الجمهور الإنكليزي في صالة استعراض Xfactor وسط الأجواء الزاهية العابقة بألوان أقواس قزح سيختار الشاب الإفريقي الأصل ذا الصوت الأجمل.. فتستغرب.. أبصر الدهشة بعينيها.. تظنهم ينحازون إلى المغنية الشقراء، فنسخر في سرّنا من سذاجتها. وعندما يتحقق فوز الإفريقي، تعقّب:

– في كل مكان، وعندنا في العراق السود يتمتعون بأصوات جميلة.

أغلق المذياع وأستعد لمغادرة شقتي.

اليوم سنخرج إلى المسبح أنا وكالم مع الأسبرجر "تايرون" ذي الثانية عشرة العنيف والهادىء في الوقت نفسه.

لايتكلم.

يُهَمْهِم حين يبتسم ويزمجر إذ يتغير لونه فيصبح وجهه ذا ملامح صفراء. تعرف أنه جائع أو متضايق من ردة فعله، وقد ينقلب عليك من دون أية علاماتٍ وإشاراتٍ تَسْبِقُ انفعاله.

معلوماتي الأوليّة عنه: أبواه منفصلان.. الأب شرطي، والأم ربّة بيت.. جلست معه في المقعد الخلفي، وراح كالمُ يقودُ السّيارة.

سَأَلَني:

– اليوم ينزلون العلم البريطاني من الاتحاد الأوروبي.

– سمعت فقط عَدَدَ ضَحَايَا كورونا. وأظنّ الصّين لا ترى ضرورةً لإعلان الطوارئ الآن.

– الصّين عظيمة إنهّمْ يشوّهون سُمْعَتَهَا.

الغائب الحاضر جنبي تَمْلَمَلَ ثُمّ أطلق ضِحْكَةً وأشار إلى شئ ما

على الرصيف، التفتّ فلم أجد غير عجوز تنحدر بسيرها البطئ إلى أحد المحلّات، وسيارة البلدية عند المنعطف تجمع القمامة. ربتّ على كتفه، والتفتّ إلى كالمُ:

- هل تظنُّ انفصال سكوتلاندا عن بريطانيا أصبح مسألة وقت بعد بريكست.

- ربما أرجح الانفصال وأشك أحيانا، القضيّة معقّدة، الواقع رغبة الانفصال موجودة.. كلّ الخبراء هناك في اسكتلندا حيث النفط إنكليز كيف سيدير الاسكتلنديون بلدهم ولا خبرة لهم مثل الأنكليز؟

- وأنت ماذا تفعل لو جرى التصويت بنعم؟

- أنا زوجتي إنكليزية وبيتي هنا!

- ياصَديقي العزيز سواء استقلت اسكتلندا أم لا فستظلّ رئيسة وزرائها آنق رئيسة وزراء في العالم.

التفتُّ إلى عينيه تلمحاني في المرآة:

معك حقٌّ في هذه المسألة نحن الثلاثة متفقون: أنا وزوجتي وأنت!

ضحكتُ متخابثا وقلت:

كلّ ظهور لها ببدلة جديدة آخر مرّة رأيتها قبل أن آتي إلى نوتنغهام بأسبوعين كانت ترتدي سترة بنفسجيّة وتتحدّث عن الاستقلال!

- حَسَنَاً سأعود بعد دقائق!

وتوقفت السَّيارة ليبقى تايرون بصحبتي حتى قَطَعَ كالُم التذاكر ودخلنا المسبح.

توجَّهنا إلى الماء.

نزلنا ثلاثتنا، وبدأ تايرون يعوم.كان يسبح بسرعة مذهلة.

قوة مفرطة.

أحيانا يغوص بخفة الضفدع.

تذكرت طفولتي والرقص على الجليد، وسباق السباحة حين يصحبنا المعلم، ومعنا التلميذات إلى مسبح بلدية يرمنغهام.في الصفّ السابع عمري ثلاث عشرة سنة.

نلعب.

نعوم. نحس بالدُّنيا خفيفة تحت أجسادنا.

يرشّ أحدُنا الماءَ بوجه الآخر.

لا أكثر من أن تستعرض في ساحة المدرسة، تقفز من المنصّة، فتثير نَظَرَ فتاةٍ أو تستغل استعراضك في المسبح. نعرف نحن الأولاد أن كلّ تلميذةٍ معجبة بواحد منا..

الأجساد.

النهود الصغيرة تعجبها الحمالات، والأفخاذ...

أشياء حيَّةٌ بضّةٌ رائِعَةٌ.

وكانت "كريستي" تحتك بي.

تُثيرني...

أقرب التلميذات لي... جَعَلَتْ مكانها جنبي في الصفّ. وفي القُرَص حالما تجد فراغا تجلس قربي تحدّثُني.

أحْيَاناً أرتجف.

أخاف. أُحْجِمُ.. أتردَّد.. وأجرؤ.

شيء ما يمنعني وينثني فيعود يحرّضني.

هل أنا في عالم آخر؟

وزاد من خوفي أنّ أمّي استلمت رسالة من المركز الصحي في منطقتنا تخصّ أختي. رسالة غريبة تتحدّث عن أمراض في الجنس وبعض خفاياه، وحينما ذَهَبتْ فَهِمتْ من الطبيبة الهنديَّة أنها رسالة عامة تبعثها المراكز الصحية، إلى الأمَّهات الوصيَّات على فتياتهن القاصرات تخصُّ فحصاً عاماً عن السفلس وأمراض الزهري أو الآيدز. أمّي ترى أنها رسالةُ مَنْجَسَةٍ تثير القرف لا تخصّنا.. نحن المسلمين. مثل الكلاب هؤلاء. لاحرام ولاحلال. بناتنا عذراوات. لايعرفن الجنس إلّا يوم الزواج. ويميل أخي بفمه على أذني مقهقها:

– والتفريش؟ panting أكيد لا يُعدي.

لكنّ أمي تحسُّ بلمزه المكتوم عن البنات الشرقيات:

– أنت ماعندك غيرة ولا نقطة حياء. لم يُخرّبْكُم إلّا شيء اسمه التلفزيون، والنتّ والأحرى أن يبعثوها تخصُّ الأولاد لا الحرائِرَ، لكن ماذا بمقدوري أن أفعل وأنا وحدي مع دنيا مليئة بساعات الكترونية ومجموعة بُورْدْ وهواتف نقالة وأفق مفتوح على كلّ ماهو وقح، وتضيف بعد سَوْرةِ حُنْقٍ. والله تربية البنات أسهل في أوروبا على الأقل البنت حبيبة أمّها لا تفلت مثل الولد!

قد يذوب هاجس التردد.

يقلُّ الخوف حين أدرك أنَّ الأمهات بعد مرحلة الابتدائية يعلّمن بناتهن كيف يمارسن ويستعملن حبوب منع الحمل. وتظل الحالات

النادرة تثير خوفي. حالة أبوّة لشاب إنكليزي عمره اثنتا عشرة سنة وفتاة بعمر الثالثة عشرة، معلمة تمارس الجنس مع طفل في مرحلة الابتدائية. وأخرى تَعْلَم أن شريكها يمارس الفعل ذاته مع ابنتها، فتصمت خشية من أن تهدم البيت فتفقد الشريك أبا طفلها القادم..

أضحك.

أصل إلى قمة التلّة وأنا ألهث، فأضم كريستي إلى صدري. أقبلها قبلة طويلة.

أتلفت حولي فيقع بصري على حقول خردل صفراء، وساحة خيل تسيِّجُها أسلاك من معدنٍ مبروم،. أعود إلى تقبيلها ثانية ثم ترفع رأسها فتشير نحو جهة قريبة وتقول وسط اللهاث:

– لننزل إلى هناك.

ننزوي خلف أجمة تغصّ بشجيرات الهندباء، ترتمي على ظهرها وتفرج ساقيها..

أندفع..

قوة جارفة لا أقاومها.

صخب في داخلي. أخال أني أستطيع أن أحتوي العالم كلّه في لحظات.

عنف لامتناه.

فأرتمي فوقها.

لحظات.. دقائق... أنفاسي تتلاحق.

ألهث... وأَنْضَحُ بالحمّى

فأجد أنَّ روحي الصاخبة تكاد تخرج من ذلك المكان وتسيل فيها، فأطلق صيحة وترسل صرخة قصيرة.. تتلوها آهات خافتة..

أهدأ..

كأني أحلّق إلى عالم ناعم يُشِيعُ فيّ السكون والخدر..

تغيبُ في الأفق فأهبط من فوقها، فَتَلْتَفِتُ أسفل عجيزتها ترى بقعة دم تختلط بتراب الأرض الرملي الداكن، فتبتسم، تُقَبِّلُنِي وتقول:

- لَمْ أعدْ الآن عذراء.

وتعود تقبّلُنِي بِعُمْق.

قبلة طويلة تجعلني أزهو بأنّي صنعت على الأقلّ شيئا مهما..

كنت يوم المسبح قد أسرعت إلى الحمام، ثورة أخرى، حركت يدي.. صورتها.. فَخِذَاها اللامعان.. وأطلقتُ تحتَ الدشّ لهاثاً مَكْتُومَاً كَأَنَّنِي أرتّب الأمر من قبلُ للقاء اليوم.I am not virgin لا أُخْفِي أنّي خِفْتُ.. في الثالثة عشرة من عمري. أمارس مع فتاة مراهقة مثلي. صورة الصَّبِيِّ الأَبِ والصَّبِيَّةِ الأُمِّ، أَصْغَر أَبَوَيْن في بريطَانيَا تُلَاحِقُنِي.

هل أعترف لأمّي. فينسيني الخوف الزهو بفحولتي!

الخبرُ وَصُورتي فِي التلفاز!

يَشْغَلُني بعض الوقت أن أصبح أبا صغيرا لمولود جديد فأقع تحت رقابة البلدية وأهلي، وأجد أمي تصرخ فيّ أن حفيدها ابن حرام، وليتها ماتت قبل أن تعيش إلى هذا اليوم.. كلّ يوم يمرّ يجعلني أزداد قلقا وراحة وأنا أهتمّ ببطن كريستي وأهمُّ أن أسألها إن كانت تقيّأت أو تشعر بالدوار، ثمّ أتخلّى عن أفكاري السوداء، وأراهن على أنَّ أمّ صديقتي

درَّبتها على استخدام حبوب منع الحمل، وقد فزتُ في الرهان على نفسي وهواجسي التي تآكلت بمرور الوقت. ظلت كريستي صديقتي إلى السنة التاسعة. بقينا نلتقي عند أجمة الهنديباء، ومرة دعتني إلى بيتها. كانت أمها في العمل. في غرفتها فعلنا الذي نفعله في الأجمة.

كنت أبدو مطمئنًا والجميع في المدرسة يعرفون أنَّ كريستي صديقتي!

-سنغادر الآن!

ينتشلني صوت كالُم من الماء، فنخرج وبيننا تايرون الأسبرجر. وفي طريق العودة قلت مشجعا:

أنت سبَّاح ماهر ياتايرون!

أطلق همهمة، وتجاهل كلامي:

مادام رائعا بهذا الشكل فسنأتي إلى هنا مرة أخرى.

قال كالُم ذلك، ولم يتوقف تايرون عن الهمهمة طول الطريق!

## ٦

هو الصباح ذاته.

وجهي نفسه.

المرآة.

أتابع المذياع باهتمام أو لا مبالاة:

٥٢٥ حادثة وفاة بسبب الكورونا. وإصابتان في الإمارات.

مقدم البرامج الشهير ستيف يعترف أنه gay. الخبر يفاجِيء زوجته وأولاده.

سقوط أربعة قتلى في الناصرية ومجموع الضحايا في العراق يصل إلى ٨٠٠ قتيل.

وصلتُ البارحة متأخرا. هناك ازدحام فظيع في الشوارع. المسافة من مكان عملي إلى شقتي تستغرق نصف ساعة. قطعتها الحافلة بساعة ونصف. كنت آمل تلك الليلة أن أتمتعَ بمشاهدة سباق التزلج على الجليد.. البلدية أغلقت الجسر الكبير بعد الظهر لسبب لا أعرفه، فازدحمت الطرق، وَحُرِمْتُ لذة متابعة رياضتي المفضلة. وحين وصلت الشقة، أعرضتُ عن البراد واكتفيت بكأس شاي. كانت أمي قد حسبت حسابها لطعامي خلال الاسبوع الأوّل. فعملت لي عدة وجباتٍ تكفيني حتى نهاية الاسبوع، محشي.. بركر.. بروستد.. قيمة ثمَّ دسَّت كلَّ وجبة في علبة من البلاستك. ولم تغفل أن تكتب على أيّةٍ من العلب ما تحويه

من زاد.لا تنسَ أنْ تسخّنَ الطعام، وتهمس لنفسها: قلويكم من صخر والله بل أقسى. كان عملي في نوتنغهام مرثية تتلجلج في نفسها.

أنشودة حزينة تخصّها وحدها أكثر من أيّ إنسان آخر..

بعد زواج أختي الكبرى آمال ورحيلها إلى السويد مع زوجها ثم رحيل أخي صبيح مع زوجته الأرجنتينية إلى لندن، وجدتْ فيّ أنا واسطة العقد وفي أختي طموحها.

تخاف أن تقضي بقية عمرها في دار للعجزة.

ربما...

يمكن أن يكون ذلك أحد هواجسها.

أو كابوسا يراودها.

لا أظن أن هناك تفكيرا آخر يشغل ذهنها.

حتى عرفنا أخيرا حقيقة أمر جديد. أمر صمتت أمّي عليه طويلا.

تأمّلَتْ.

فكرّتْ فيه.

ثمّ أخيرا رضخت.

أختي ماجدة تحبّ شابا باكستانيا. وتهدّدنا إن لم نوافق بخيارين، إما أن تنتحر، أو تضع يدها بيده ويرحلان إلى مدينة أخرى تحت حماية الشرطة. في البدء كانت مفاجأة لأمّي. قالت أنظر أختك مجرّد أن بلغت سن النضج فكرت بالزواج من باكستاني. مثل الذي صام وطال صيامه ثم فطر بجرّيّة. أيعجبك هذا؟. المعلومات التي جمعتها عائلتنا عن شريف الباكستاني. أنه من لاهور. عائلة سنية غير متدينة. "خذا حافظ

يا أم شريف فقير الله" أقول لاختي ملاطفا. شريف... "خدا حافظ".. شاب طيب خلوق. وعندما اجتازت أُمّي الصدمة قالت وَمَالَه السنّي. مسلمون مثلنا. لهم نفس القرآن. يصومون ويصلوُن إلى الكعبة على الأقلّ أفضل من أن تختار واحدا من الإنكليز، واستنكرت وهي تنصت باهتمام إلى بعض التفصيلات التي جمعناها عن عائلة شريف: ألم تتزوَّج خالتكم من إماراتي سنّي وكيل وزارة داخلية.. لديها ما شاء الله حفنة أولاد وبنت مثل القمر، والله لو كان بيدي..، لكنّي خائفة أن يكون لي أحفاد سمر البشرة غرباء عنّي. أنتم الآن أولادي خرجتم من بطني غرباء عني.

الواقع لم يبق لها من ورقة غيري.

لا تريد أن تغامر بي سواء في عملٍ خارجَ برمنغهام أم مغامرةٍ غريبةٍ كما فعل أخواي صبيح وماجدة. أما أختي آمال فقد قررت مصيرها واختارت السويد سوى أنَّ اختيارها كان بمباركة من الجميع وبرغبةٍ من عمّتي، ولوكان أبي حيّاً لما تغيّر أي شيء في حياتنا. أمّي واصلت تربيتنا بعد وفاة أبي وجدَّتي التي لحقته بعامين. كنّا أنا وصبيح نتعايش مع الحياة الإنكليزية أكثر من البيت. أصدقاؤنا في المدرسة إنكليز، وفي النوادي.. في البيت نُضْطَرُّ للحديث مع أهلنا بلغتهم ونعود نتراطن كما تقول جدَّتي وأمي. أحيانا يظنون أننا نحوك المؤامرات والمقالب ضدَّهم. أختي ماجدة كانت تلكزني وتضحك من أمي التي تخلط بين الp و b خاصة عندما تقول وهي تحاول أن تثبت أمامنا أن الإنكليزية لاتنقصها:

I bray

أو تقول لأبي وهو يقود السيارة:

هذا bark قريب من مكان التبضع.

فيهزّ أخي صبيح كتفيه ويهتف:

-ينهق من؟ ينبح؟! هذه مشكلة خطيرة عند القادمين من بعض البلدان!

فيندفع أبي الذي أحسّ أنّ اللمز لا يعفيه:

- أيّها المتَكَلِزُ الصغير كلّ ما هنالك أن ذلك الحرف اللعين ليس في لغتنا

يثيرني أنّ أمّي تقول visa.. وكلّ الكلمات الأخرى وتسأل أختي عن ال vanilla أو تطلب مرهمَ ال Vaseline ويبدو أنّ مشكلتها مع حرفي p and b بالضبط مثل مشكلتي مع حرفي الضاد والظاء حين درستُ أيّام العطل في المدرسة العربية لم أفكّر قط بالفارق بل تساءلت لِمَ لا يندمج الحرفان بعدئذٍ تجاهلت واكتفيت بالقراءة والكتابة. أحيانا أستعمل خبثي وما أتعلمه في المدرسة فأسأل أمي:

- ما الفرق بين ال Town وال City

فيدهشني ذكاؤها:

- الآن ذهني مشغول بألف شغل وشغل حين يأتي أخوك إسأله!

انتبهت إلى الهاتف النقّال.

- أين كنت ياحسن؟ قلقت عليك.

- في العمل أغلق الهاتف أوامر لا يسعني مخالفتها، واليوم كان الجسر الكبير معطّلا لبعض التصليحات فوصلت متأخّرا ساعة ونصف

عن موعدي.

– تخريب؟

– لا لا عطل ما اطمئنّي.

– هل تعشيت؟

– نعم.

– إسمع خالتك وصلت مع ابنتها لؤلؤة من الإمارات. هي في لندن الآن. ستكون يوم السبت عندي في البيت لا بدّ من أن تأتي! هل سمعت ما أقول؟

أخذتني المفاجأة:

– ليس من عادتها زيارة لندن في الشتاء

– تقول لديها مشروع لاترغب في تأجيله.

أدرك جيدا ما تبغيه امرأة في الخمسين تخشى أن يُلقى بها في دار للعجزة إذا ما أصبحت في العقد السابع أو الثامن من عمرها. قد أتجاهل:

–هل حضوري ضروري؟

–لن أرضى عنك إلّا إذا أتيت.. ليس لديك عمل عطلة نهاية الأسبوع.. ماهي حجّتك إذن. هل أكلّف شريف أن يخدمهما؟

إلحاحها يجعلني أرضخ.

ألين...

أجاريها فأقول نعم وأعود إلى كأس الشاي.

## ٧

أترك وجهي في المرآة وألتفِتُ إلى المذياع كأنني أبحر مع مشاهد حيّة أمامي:

كورونا العدد الإجمالي للضحايا يصل إلى ٨٠٠ والصين تخصص عشرة مليارات لمكافحة الفايروس.

العاصفة تبدأ... بعد الظهر، مع احتمال تساقط ثلوج في مناطق يورك شاير.

قتيلان في الناصرية جنوب العراق، العدد يصل إلى ألف قتيل، ومتظاهرو بغداد يحرقون دمية للرئيس ترامب.

يبدو أن العالم في سباق محموم.. الكورونا في الصين.. والمظاهرات في العراق.

الناصريّة تسابق الصين.

أعود إلى النكتة السمجة القديمة:

–هل مدينة جدي شجرة خبيثة كما تقول النكتة؟

المظاهرات الآن.. ومن قبل الحزب الشيوعي. البعث. الدعوة. مصطلحات لا تعنيني، This is not my problem ويوم صحبت والدي في بعض الجُمَع إلى المركز الإسلامي وسمعت بعض أصدقائه الطيبين أو الخبثاء وفيهم من كان معه في مركز رفحاء يفتخرون أنهم من الشجرة الخبيثة. شَكَرَهُ... أحد الممازحين يهزّ كتفيه ويحاكي المصريين، الحاج

محسن طفيل اللبناني شريك أبي، في محل الفاكهة والخضار يعقّب وهو يمتدح الشاي الذي عملته له أمي:

– والله إذا كانت الشجرة الخبيثة بمثل هذه الأمانة والمفهومية فنعم الشجرة.

فتردّ أمي المفترض أنها لاتعرف الفرق بين الp و b والCity والTown:

– يعني فقط الناصرية خبيثة ألم يحارب الحبوبي الإنكليز منها يعني ياحاج أنا مع الحق ولو على قطع رقبتي ماذا تقول عن البصرة وتكريت وبغداد والموصل إليس هناك خبث؟ فقط بالناصرية؟

أشعر أني دائما أدخل في عوالم لا أعيشها.

مثل ضيف يعرف متى يغادر مكانا لايرغب أن يبقى فيه طويلا لكن عليه أن يلبّي الدعوة.. بعد ساعات، أذهب إلى الدوّار أمارس لعبة التزلج على الجليد. وفي السبت أقصد المسبح. الكورونا تجري بسرعة هائلة، مذهلة، تصل إلى بريطانيا. بعض الإصابات، ومعها أجد نفسي في زحمة الطريق.

هذا الصباح ركبت الحافلة، وحين وصلت شارع "Robinhood way" التحقت بطابور طويل. كانت هناك سيارات من الشوارع الفرعية تشق الشارع الرئيس. الطابور يمتد إلى الوراء بمدى غير متناه.

لا داعيَ لأن أسال.

عاد خلل الجسر ثانية.

جلست متململا.

أشعر بضيق.

اتصلت من هاتفي النقال، فردَّ علي المدير بلهجته الغريبة: أعرف ذلك... كانت السيّارات والحافلات تزحف كالسلاحف. استغرق الطريق أكثر من ساعة، كان كالم ينتظرني. وكانت هناك العاملة الجامايكية ميشيلة. لم يزد عدد التلاميذ عن أربعة. سيارة المركز وسيارات الآباء ماتزال عالقة في زحمة الطريق. لوجرت الأمور – شأنها كل يوم – لخرجنا هذا الصباح مع جوليا الفتاة الاسبرجر، وتركنا تايرون في المركز مع المدير وميشيلة. ننوي أن نشتري شجرة تفاح وأخرى أجاصا نزرعهما مع التلاميذ في حديقة المركز الخلفيّة بعدها نقتادهم إلى قنّ الدَّجاج حيث نجمع البيض.

لقد غيّر خلل الجسر الذي لا أعرفه ولا يفهم سببه كثير من الإنكليز، طبيعة عملنا.

لجأنا إلى خطة بديلة...

وفي لحظةٍ غير محسوبةٍ هبطت علينا من الطابق العلويّ حيث المتوحدون صرخة حادة أطلقتها المتوحدة" سينا"الشابة الضخمة ذات العشرين سنة التي لا يجاريها أحد في حدّة الزعيق، فهرعنا أسفل السُّلَّم نستطلع الضَّجَّة. وجدناها عارية تركض...

تصرخ وتقهقه...

تركل جدار المدرَّجات المعدنيّ وتراوح في مكانها...

تلتفّ على نفسها..

هتفت ميشيلة:

- ماذا أفعل وحدي

وعقب المدير وهو يهز كتفيه:

- حتى لو اتصلنا بالبلدية سائلين أن يبعثوا لنا عمّالا من مجموعة الاحتياط فإنّ طوابير السيارات ستعرقل وصولهم.

وعندما وجدت "سبينا" نفسها محاصرة من جهتي الدَّرَجَات في الأعلى والأسفل طوّحت بلباسها الداخليّ في الهواء ولم تكن لتتوقف عن الضَّحِك الهستيري والزعيقِ الحادّ، فتناثر فوق رؤوسِنا وعلى الجدرانِ وفوقَ درجاتِ السلَّم خراء أصفر غامق. صبغت دَوائِرُه وَنُتَفُهُ رقعةَ الممرّ والدرجَ وبابَ الصَّالون، وخلالَ لحظاتٍ جلستْ على منتصف الدرج تلطم رأسها براحتي يديها، وفي عينيها يلوح بعض الغضب ورغبةٌ في الزعيق والبكاء ثمّ انفجرت بسيل من كلمات أقرب إلى الهذيان:

-Garden..sleeping...don't like..hold up

ناداها كالم برفق:

Don't worry everything will be OK-

ترك المديرُ المعاقَ الاسبرجر بعهدة السكرتيرة وصَعِد الدرجات حَذِراً ليكون مع ميشيلة، أما أنا وكالمُ فقد ارتدينا القفازات وقناعين، وراح كلّ منّا يزيح ماتناثر من البقع عن جبين صاحبه وانشغلنا بالحيطانِ والممرّ، نمسح ونزيل بالمطهرات الروائح الكريهة:

-لا بأس عليك ياصديقي شغلتنا متعبة وأظنّك ستحبها في المستقبل. وأعتقد أنّ جاسمين ستقدّر عملك مثلما أراه!

- بصراحة لقد سرني العمل معك!

– ستجد جاسمين لطيفة في تعاملها أيضا.

– أتخيّل نفسي وأنا أرتدي القناع أني أحارب كورونا.. أنا في الصين الآن!

أقول وأغطّي تذمّرني بابتسامة إذ شعرت أني ربما أكون عرضة لبعض البكتريا ولا هاجس عندي من خوف حتى هذه اللحظة. قد أكون متفائلا إلى أبعد حدّ:

–أووه كورونا!forget it

حقا أرهقنا الشّطف والتنظيف، وقد تناثر وصول العاملين فخفّ العبء قبل الظهر بساعة.غير أن طريق العودة لم يكن سهلا. طوابير السيارات، وبداية عاصفة.

قتام في الأفق ينذر بثلج ومطر...

جلست في الحافلة، ولو قضيتُ يوما عاديًا لكنت ذهبت إلى المنزل. أستريح قليلا، بعدها أغادر إلى برمنغهام لكنّ علي أن أؤجل سفري إلى الغد.يومي بدأ بتناثر كسر تثير القرف وها هو يحمل نتفا بيضاء ناصعة ولا أعرف كيف ينتهي.

مازلت في الحافلة.

الطريق متعب.

الهواء عاصف.

الثلج يصبغ الطريق بالبياض.

غثيان يداهمني حين أشعر أنّ رائحةً كريهة تنبعث من جسدي الذي تلطخ بالخراء، وأن وجهي يثير قرف ركّاب الحافلة برائحة عالقة فيه، فلا

يلتفتون إلى طابور السيّارات الطويل.

ولا إلى الوقت الذي يداهمهم، والثلج والزوابع.

أتعمّد أن ألقي نظرة خاطفة على الوجوه، فأرتاح حين أراهم لا يعبؤون برائحتي الغريبة.

يرنُّ النَّقَّال. تقول والدتي إنَّ خالتي تصل غدا بالقطار إلى برمنغهام، فأتجاهل أن أحدثها كي لا أزيدها قلقا عن العاصفة الموعودة التي بدأت تُرَاقِصُ الشّجرَ وتملأ الأفق بالقتام. فتنتهي المكالمة بنمط مألوف دائما من الوصايا ولا تنسى أن تذكّرني أكثر من مرّة بزيارة خالتي وابنتها، فأَعِدُها أنّي سأكون في برمنغهام يوم غد قبل الظهر!

## ٨

تركت وجهي في إحدى زوايا البيت وخرجت!

لكن البارحة حشرت جسدي في رَغْوة بيضاء من الصابون

طويلاً وقفت تحت "الدشّ" أدلك وأطهّر جسدي من نجاسة الصباح.

غثيان غاب عني وقت الحادثة.

شعور بالتقيؤ والقرف. حقًا لم أكن أشعر بكلّ ذلك.

وقتها وأنا أمسح وجه كالم لا قَرَفَ ولا غَثَيان.. بعد دقائق يخفّ كلّ شيء، وتنبعثت من جسدي روائح الكريمات والعطور.. الحمّام الساخن.. أصبحت بخفة البالون وقد تجرد جسدي عن كلّ مايُثقله، فاستلقيت على السرير وكنت أستغرق بنوم عميق. وحين استيقظت متأخرا، شعرت أني نفضت الليلة البارحة كلّ تعب الأمس. لمحت الشارع من النافذة فوجدت المطر مسح الثلج والعاصفة خفّت. قلبت الدّنيا من حولي وأنا نائم واستفقت فوجدتها تُلَمْلِم أنفاسها.

كانت أغصان الاشجار تتمايل برفق.

كأنّ الهدوء ينسلّ من الخارج إلى جسدي.

هل حلمت؟

ربمّا..

أعرضت عن سباق الكورونا والناصرية. بل راجعت وأنا أتناول الفطور آخر أرقام الضحايا. لم يعد يهمني العدد، الآن تذكرت. قلت من

قبل ربما حلمت. تأكدت الآن من أنّه حلم غير عاديّ.

شيء رائع أن أعود ثانية إلى أعوام الدراسة..

في ذلك الحلم:

مع بكريستي، في المدرسة، كنت.

الحادث حصل في رمضان عندما كنت في الصف الثاني المتوسّط سنةَ تعرّفي بكريستي إذ أثبتّ فحولتي وافتخرت بأنها أصبحت سيدة. لست عذراء قالتها لي وقالت لمن معها من فتيات الصفّ. بالتأكيد زميلاتها يعرفن من.. كنت أجلس معها على مدرجات المدرسة فترة الاستراحة الطويلة، نأكل ال "snicker" نراقب بعض التلاميذ يلعبون كرة السلة. لا أذكر أن أبي أو أمي أجبرا أحدا منا على الصلاة والصيام. أبي صحبني أنا وأخي صبيح مرة أو مرتين إلى المركز الإسلامي. وجدتي علّمتْ صبيحا أسماء الأئمة والصلاة قبل دخوله المدرسة، فأحببت أن أتعلّمها. في مدرسة اللغة العربية يوم السبت صلّى بنا المعلّم.. وفي البيت حاولنا أنا وصبيح ومعنا ماجدة أن نصلي... وقف صبيح أمامنا يمثل دور الإمام لكنّه قطع صلاته مرتين تركنا واقفين وذهب إلى الحمام يتوضأ من جديد. يقول إنه أخرج ريحا.لم نشتمّ عفونة أو نسمع صوتا مع ذلك وضعنا أيدينا على أنوفنا. ولعلني فكرت أن أصوم رمضان وأنا مازلت في السنة الأولى من دراستي. ضحكت أمي وعقبت عندك دروس. التفت أنت وإخوانك إلى مدرستك. مازلت صغيرا ثم إنكما تبولان واقفين تعلّم حين لاتبول واقفا فكّر بالصيام. فانبرى صبيح ساخرا:

آمال وماجدة لاتبولان واقفتين فلِمَ لا تصومان.

سخيف تقول آمال وتشيح بوجهها.

وقد صمتُ..

لكنني أفطرت بعد ساعات

كان الفصل صيفا والنهار يطول إلى الساعة العاشرة.

لَمْ أَصْبِر...

غير أن الأمر، هذه المرة بدا أكثر غرابة، كان معنا صبيّ من المغرب في الصف التاسع.. أكبر مني بسنتين.. اعتاد حالما يراني مع كريستي يهمس بصوتٍ منخفضٍ واضحٍ وهو يتطلع في الأرض قَرَفاً punk أعرضتُ عنه.. ظننته يُحَدِّث نفسه أو مصابا بعوق ما.. هذه المرة وقف أمامي وجهاً لوجه. جحظت عيناه وخاطبني باللغة العربية:

أنت من الشرق فاسق كافر تقترف الزّنا وتجهر بإفطار رمضان في العلن.

تساءلت كريستي: what ألقيتُ الشطيرة جانبا واندفعتُ نحوه غير أنها سبقتني..

وضعتْ يديها بصدره ودفعته بقسوة لبوة. صرختْ:

coward dirty go away

لم يتوقع أن تكون صديقتي بهذه الصورة من العنف، فاختلّ توازنه وسقط على قفاه وقبل أن أصل إليه حجز التلاميذ بيننا، وراح بعضهم يزعق.

في الوقت نفسه اكتشفت قوة أمي وطيبتها.همّ أخي أن يترصد عند

باب المدرسة فَحَذَّرَتْه، وفي اليوم التالي قابلت المدير وصاحت بوجهه: أنا صائمة لكن قل كيف يصوم صبيّ بعمر ابني والنهار لا يُطاق بطوله المفرط. هؤلاء دواعش قتلوا أباه في العراق ويرومون قتل الابن، وأنتم تسكتون عنهم. تدعونهم يسرحون ويمرحون ويهددون الآخرين.. ماذا يريدون منا!

كانت تتحدث بانفعال حتى إنّي لَمْ أَخْجَل من لُكنتها ولغتها.

بدت لي عظيمة أكبر من كل الدنيا!

أَشعر معها بالأمان كأنّ أبي لم يمت وجدتي ماتزال على قيد الحياة...

المدير نفسه تعاطف معنا وأحضر وليّ أمر التلميذ.. هدده باستدعاء الشرطة ورفع دعوى "إرهاب".. ولا أذكر أن التلميذ المغربي تجرّأ بعدُ أن يلمحني بنظرة.. غير أن الحلم يختلف..

اختفت كريستي.. فاجأتني بهربها..

هربت حالما وجدته يتقدّم نحوي..

تلاشَتْ من دون أن تَلْتَفِتَ لِي

فنهضتُ هائجاً

في تلكَ اللحظة برز من مكان ما كمقاتل شرس بعينين تجدحان شررا جنديّ كان ينتظر بصبرٍ عدوّاً مُنْذُ زمنٍ طويلٍ.

هُوَ بعينه العم محسن طفيل.

شريك أبي في محلّ الخضرة الكبير الذي حمل إلينا بكلّ أمانةٍ حصة أبي في السوبر ماركت، كان أمينا في كلّ شئ. هناك أمور كثيرة

نجهلها... أرباح من مبيعات لم يدوّناها في سجل الضرائب... مبلغ كبير، كان يبكي ويقول رحم الله أخي أبا صبيح كم نصحته ألا يذهب إلى العراق، حقا مبلغ كبير... وكان أخي صبيح حين نذكر أمانةَ العمّ محسن طقيل وطهارةَ ذمّتِه يخاطب أمّي بمزاحِهِ الثقيلِ: صحيح أنتِ تجاوزتِ الأربعين مع ذلك مازلتِ مغرية وملفوفة ورائعة مثيرة حقا أكثر من الإنكليزيات، ولعلّ الرجل فكّر أن تكوني ضرة لزوجته أم أحمد!

– ولك حيوان أنا أقسمتُ ألّا يمسّ جَسَدي أحدٌ غَيْرَ المرحوم أبيك والأحرى بك أن تقول هذا لصديقاتك في الصفّ!

غير أن العم محسن بقي وحده ولم يرغب بشراكة أحد في المحل بعد وفاة أبي.

ولعلّه لم يفكر قط بالزواج من أمي بل مجرد مزاح ثقيل من أخي صبيح.

أو مجرّد شكّ..

توجّس..

وجدتُه يحمل هراوة فيهوي بها على رأس التميذ المغربي.

المدرسة فارغة..

كريستي هربتْ.

التلميذ يترنح.

يتراجع.

يهرب..

يلحقه العم محسن.

أراقب المشهد من بعد..

لحظات.. ساعات..

يختفيان..

لحظتئذٍ أنتبه على صوت ناعم يعلن وصول القطار إلى محطة برمنغهام...

فأرمي آخر حلم لي من مخلفات البارحة وأهبط.

٩

في البيت تناوشتني خالتي بقبلاتها وعتابٍ طويلٍ.

لا أظنّك عاقّا تقول، لكنْ أهكذا تترك أختي وحدها للعزلة وتذهب الى مدينة أخرى وهل فرص العمل انعدمت إلا في نوتنغهام؟، كانت أمي مفتونة بقلادة من الذهب وبعض هدايا ثمينة جلبتها لها أختها، أما لؤلؤة فقد لاحت لي فاتنة حقّا، بوجهها العريض، ونغمتها الخليجية الثقيلة وابتسامتها الهادئة.

أكثر براءة، كأنها كلما كبرت ازدادت طيبة.

– هذه هي أوروبا ياخالة، وهذا هو نمط العمل فيها أَمْ تُحِبِّين أن أعيش على مساعدات البلديّة وهذا أمر أرفضه قطعا.

فانبرت أمّي محتجَّة:

– يعني ليس هناك من عمل إلا في نوتنغهام مع المعوَّقين وتترك أُمَّكَ وحيدةً في هذا البيت الطويل العريض!

– هذا هو مجال دراستي ومارست فيه التطبيق العملي قبل التخرج.

أمّي تجد في قول أختها حجّة أو سندا لشكواها فتعقّب:

– الذي يَحُزُّ في نفسي ويزعجني أكثر من العواصف، والله لم أخش العاصفة بقدر ما أخشى أن يصاب لا قدّر الله بمرض ينتقل إليه من ذوي الاحتياجات الخاصة. عدوى يا أختي عدوى.

– الله الحافظ. دعينا من العتاب الآن فلكلّ مشكلة حلّ سنقضي بضعة أيّام عندكم ثم نصحب أمك معنا إلى لندن!

– لقد قلتِ حقا ياخالة والحمد لله على سلامتكم "وغيرت الحديث عن قصد" سمعت أن كورونا وصل الإمارات، ألف ألف الحمد لله!

قالت لؤلؤة:

– صحيح ثلاث إصابات ولا تدري ماالقادم.

ردت أمي: الله الحافظ! وأردفت كأنّها تتعلق بذكرى أبي وفاجعة موته: هي المنطقة ناقصة... المشاكل مع إيران وحرب اليمن والعراق الله يستر.

قالت خالتي تستهين بما يجري:

– كل شيء يهون ولا الوباء هؤلاء الصينيون أصبحوا يملأون العالم. في كلّ مكان. عندنا في الإمارات بعشرات الآلاف في أيّة مؤسسة وأيّ معمل.. هذا ثاني داء يصدّرونه للعالم والمصيبة كيف تحارب كائنا مخفيا. فيروس يتلون ويتشكل. هكذا يقول أهل الاختصاص.

فتساءلت أمّي:

– ولماذا أصبحت الصين هي المصدّر لهذا الفيروس.

هذه المرة انبرت لؤلؤة تشرح الأمر:

– إنهم مليار ونصف، يأكلون كل شيء، الذباب، والجرذان

والخفافيش والوزغ.. كلّ شيء، يُقال الكورونا من أكلهم الجرذان!

فتوافَقتِ الاثنتان:

- يا لطيف من هذه النجاسة!

كانت خالتي أكبر من أمي، ولم يكن جَدّي على وفق حكاية ترويها أمّي من المتزمتين، فقد عمل بحارا في الخليج واستقرّ بضع سنوات في الإمارات يعمل قبطانا لزوارق الأسرة الحاكمة بدبي قبل أن يعود إلى الناصرية، وفي الإمارات تعرّف على إحدى العوائل الثرية.

هكذا تزوجت خالتي في دبي. أقرأ بعينيها ومن خلال سلوكها معي أنها تروم أن تكرر حكاية لؤلؤة بطريقتها الخاصة. لا سيّما أنّ زوجها اهتمّ بالأبناء وترك لها شأنَ البنت وحريّة التصرّف بمستقبلها وكأنّها وجدت سعادة لؤلؤة في بريطانيا.. لؤلؤة آخر العنقود بعد أربعة أولاد، هذه السنة تُكمل دراستها الثانوية، تحب الديكور وتصميم الأزياء، ومادامت خالتها تسكن بريطانيا فيمكن أن تواصل دراستها هنا..

لا أظنني مخطئا، قلت من قبل إني آخر ورقة مازالت رابحة بيد أمّي التي ترى وجودي بعيدا عنها مشكلة تقتضي حلّا سريعا، وخالتي تجدني الشخص الأكثر لياقة بابنتها المدلّلة. الزيارة جعلت أمي أكثر حَيَوِيَّةً.وجدتُها استعادت نشاطها وقاومت يأسَها.. كأن دار العجزة التي تتربص بها تباعدت عنها.إنها تقبل بأيّ عرض عدا أن تعيش تحت جناح صهر باكستاني وكنّة أرجنتينية.

عيب..

حتى لو كان الصّهر عراقيا.. عيب. غير مألوف.

تصورت أني تلك الليلة أصبحت محور الحديث. رشاقة أمي وفرحها بأختها وابنتها، وأمل خالتي الجديد.لقد عادت بها السنين إلى الزمن الذهبي زمن أبي وجدّتي.

وربما خطر ببال لؤلؤة أن أكون فارس أحلامها.

كلّ شئ ممكن...

أو

غير مبالغ فيه، على الأقل حسب ما تشي به أجواء البيت.

وانضمت إلينا ماجدة التي دعت الضيوف إلى حفلة عشاء في اليوم التالي، وقبل أن ارتمي على فراشي دخلت أمي عليّ الغرفة وهمست:

– غدا تصحبني ماجدة مع خالتك لزيارة بعض صديقاتها، عليك أن ترافق لؤلؤة فتريّها معالم المدينة!

– تذكّري أن عليّ أن أرجع إلى نوتتهام بعد العصر.

– لا عليّ بذلك لديك الوقت كلّه إلى العصر!

فهززت رأسي، ولم أبدِ أيَّ امتعاض!

ألم أقل مادمت أثق بهواجسي فكلّ شيء غير مبالغ فيه!

١٠

وجهي مازال في ركن ما

ربما هنا في البيت

أو وفق احتمالات عديدة تركتُه في زاوية ما من شقتي الصغيرة في نوتنغهام.

لا أدري لِمَ لا تثيرني الكورونا في مكان آخر غير نوتنغهام.

لا أخشاها قط.

مازالتْ بعيدة عنّي.

ولا يخطر ببالي أن تلاحقني.

لعلَّ ذلك يعود إلى أن ظهورها المفاجئ حدث أولّ يوم لي باشرت فيه العمل فقد دخل الفيروس حينها سباقا بعدد الضحايا مع مدينة جَدّي الشهيد الذي تفخر به العائلة.

مجرد ذكرى أحملها من جدَّتي وأبي وأمي..

بعض الأحيان أجد أنَّها لا تخصُّني.

منذ تلك اللحظة سَخِرتُ من اسم الوباء نفسه.. العالم يُعْنَى بالمظاهر ومادام الفايروس يتخذ تحت المجهر شكل التاج فليكن اسمه كورونا، وقبل أن أشتغل مع المعاقين حذرتني أمي. قالت احذر أن يصيبك داء ما. العمل مع كبار السنِّ والمعاقين يجلب أمراضا وفايروسات نعجز أن نتحاشاها مهما بالغنا في النظافة والتحفظ.

وكانت تخشى أن نلقيَ بها في دار العجزة لا خوفا من الفايروس حسب أسوأ الاحتمالات بل فزعا من الوحدة. هذه أوروبا أقول مع نفسي، ولا يخطر ببالي قطّ الرفاه والمال وحدهما.. هناك وجه آخر لابدّ ان نقبله. الوجه السلبيّ الآخر. لذلك لا أبالي.

أنا نفسي أعرف ولا أعرف أو أتجاهل حين أتساءل: أين تكون نهايتي لو امتدّ بي العمر إلى الثمانين عند ذاك لا أحد يهتمّ بي من أولادي وبناتي.. سوف يكون كلّ منهم في شغل شاغلٍ عنّي. ها أنا أسابق الزّمن، ودار العجزة التي تنطقها امّي بقرفٍ ليست بعيدة عنّي.

بالأمس تعرضت لرذاذ من نجاسة..

قَرِفْتُ..

كَرِهْتُ نفسي

ظننت الآخرين في الحَافِلَة يستافون ريحي النتنة.

ويتبيّنون البقع التي مسحها كالم عن وجهي. فيتحاشوني، ويغادرون الحافلة، فأظلّ وحدي.

لكني لم أخف..

الرعب بعيد عني.

وهذا الوحش الذي يبدو مثل التاج يثير سخطي بعدد الضحايا الذين يلتهمهم ولا يثير خوفي.

أظنّه مازال بعيدا عني.

لا التفتُ إليه وتشغلني جولة اليوم مع لؤلؤة..

وقد صحبت أختي أمّي وَخَالَتي بسيارتها، وخرجتُ مع لؤلؤة. عبرنا

المفترق إلى الشارع الرئيس وكان الجوُ صحوا والعاصفة سكنت تماما.

كلّ شيء هادئ في الطريق العام إلّا بعض المحلّات. قلت:

– في هذا الشارع معظم الأسواق تعرض بضاعة من الشرق وبعض الأسواق الكبيرة مالكوها من شرق آسية.

فردت بصوت دافئ:

– مثل أدجوار رود في لندن!

– هنا في برمنغهام وخاصة هذا الشارع يتجمع الشرقيون.. محلّ أبي وشريكه هناك على بعد خطوات والمدينة في الظاهر ذات طابع شرقي باكستانيون وهنود وعرب تسمعين تسعين لغة في الشارع!

فضحكت وانصرفت إلى لوحة إعلان تتأملها:

– أمّا حين يحل وقت الاقتراع لا تعرفين من أين يأتي الإنكليز فيحصدوا كل مقاعد البلدية!

مازالت تتمعن في اللوحة التي تشكلت من إيقاع سريالي وواقعي فبدت مثل شجرة تغطي جدار محل موبيليا. فالتفتُ إلى سرحانها:

– أعجبك التصميم؟

– حلوة أفكر بعد أن أنهي الثانوية هذا العام أن أدرس الdesign والديكور في إحدى الجامعات هنا!

– برمنغهام؟"

– الأفضل لندن واستدركت"أو ممكن برمنغهام لِمَ لا.

– الحقيقة لندن أفضل. مجال العمل هناك أوسع بخاصة مجال تخصصك!

– وهل أنت مرتاح في شغلك الجديد؟

– أفضل من أن أعيش على المساعدات على الرغم من صعوبة التعامل مع ذوي الإعاقة من الأسبرجر والمتوحدين!

فقالت وقد تحاشت النظر في عينيّ بعد إطلالة قصيرة:

– عندنا في الإمارات مركز للأسبرجر والمتوحدين. لم يعد هذا العوق مجهولا ولو اشتغلت بخبرتك هناك لربحت الكثير الكثير.

ولم أجد بدا من أن أغيّر الحديث:

– إن أحسست ببرودة الجو يمكن أن نجلس في كافتريا.

– لا أبدا أفضّل المشي.

كأنّما منحتني خاطرا لمدى أوسع.. لمحةُ لوهجٍ جديد انبثق فجأة. من دون مقدمات:

– مارأيك أن نذهب إلى أطراف المدينة حيث الغابة والتلّة هناك وحقل الخيول.

ربمّا ذكرت متأخّرا فحولتي.

بريئة..

حلوة..

جميلة..

البنت الوحيدة لأمّها. الصغرى بعد أربعة إخوة.. لن أكونَ مخطئا إذا قلت إنّ تفكير خالتي تتاغم مع إحساس أمّي فتركتاها أمانة عندي.

أحذُر، وأبالغُ في تحفظّي.

وهناك جموحٌ يتطاوَلُ أكْبِتُه ولا أتجاهله:

- لابَأْسَ أن نذهب.

- هل أنت مستعدة للمشي.

فردّت بابتسامة لا تقلّ عن رشاقةٍ من حركة يدها:

- أووه جرّب وسترى!

قالت ذلك، وعن لا وعي، ونحن نعبر الشارع، عند الإشارة الحمراء، إلى البوليفارد المطلّ على بدايةِ الغابةِ امتدت يدي إلى يدها كأنني أَحُولُ بينها وخطر موهوم.

خطر لا وجود له إلا في بالي وإن كانت الإشارة تضيء لحظة عبورنا باللون الأحمر.

وتركتُ يدها حالما وطِئنا الرَّصِيف، لننطلق في رحلة قصيرة تطول بضع ساعات!

اندفعتْ تصعد خلفي المنحدر

نصمت...

نتحدث...

أمامنا النهار بكامله وقد تركنا الدفء وراءنا:

- سنتعب في الصُّعود أما حين نهبِط عائدين فالوضع يبدو أسهل بكثير.

اعترضنا حاجز صخريّ فملتُ عليها أسندها بذراعي.كتفها يلاصق كتفي، خَشِيَتْ أن تنزلق قدمها فَقَبَضَتْ على زندي..

كانت كريستي تُسَابِقُني.

تجري أمامي.

تلهث.

ألحقها... تطلب مني أن أقبّلها..

أحيانا أتخيّلها غزالةً تشرد وفي الفِراش، بعدما صرخت ولم تعد عذراء، رأيتها بصورة لبوة.

نمرة تفترسني. فأرتاح لقسوةٍ من غيرِ ما حدّ...

أَجِدُ العالم جميلا مثل أحلام زرقاء تحلّ في لهاثها.

– على مهلكِ اعتبريها رياضة.

– في الإمارات أمارس مع صديقاتي رياضة التزلّج على الرمال.

– أعرف أن دبي استنسخت العالم كله: طبيعة ومتاحف ومسارح... كلّ شيء..

العالم بمكتباته، وشوارعه، ومتاحفه، وحدائقه، رحل إلى هناك حيث يجلس مع دبي على الرّمال، فأقول:

– هل أعلّمُك الرَّقْصَ على الجليد؟

– ياليت!

راحت برمنغهام تنبسطُ تحت نظرِنا، تمتدّ وتمدّ يديها كأنّها ترحّب بنا.. والغابة عن جهة اليمين تضفي على المشهد بعض الهيبة والجلال.. وثمّة التلة، وقطرات الدم التي تلاشت تحت المطر والتراب.

الرَّغبة تحاصرني..

كريستي تعصرني بين فخذيها، أمّا في البيت وقد دخلنا غرفتها فتزيّقي بعض الأحيان فوقي، تدعك حنكي بشعرات شقراء ناعمة غضّة نمت بوقت قريب، وتروح تلعق جسدي. لكننا افترقنا بعد الصفّ التاسع..

اختارت قسم الميكانيك وظهرت فتيات أخريات في حياتي. مثل أيّ طالب في المرحلة الثانوية.

ممارسات..

لهو... دراسة..

جنس..

مع كريستي وغيرها، كنا نلتقي هنا وفي بيتها، أيّ مكان.. في الوقت نفسه لم أكن أجرؤ على أن أدعو أية صديقة إلى منزلنا. أخي صبيح الأكبر الذي يبدو أكثر صَلَفاً لم يجرؤ على أن يصحب أية صديقة إلى البيت. وحين خطب "أماندا الأرجنتينية" قبلت أمّي على مضض أن تبيت عندنا، وجعلتها تشارك أختي غرفتها. تقول هذا بيت محترم. الذي في باله نية ما ليفعل ما يحلو له خارج البيت. أنتم أولاد. عندكم أخت أخشى عليها من العيب.

مع ذلك

أنْحَتُ سؤلا في ذهني وأُعْرِضُ عن جوابه: هل قبّل شريف أختي قبل الزواج، لا أظنّ، أنفي.. أعترض بطريقة ما.. أتصوّر أنه لمس يدها أو مرّر أنامله على صدرها.. أتجاهل.. نحن أولاد لا أَحَدَ يُحَاسِبُنَا، بدت أمّي مثل نمرة مفترسة إذ شكّت في ماجدة لحظةَ هددتْ بالانتحار، فصرختْ.. ونفتْ، ونظرتْ إلينا باحتقار.

واجهتنا بجرأة:

– لو أردتُ اللعب لصادقتُ شاباً إنكليزياً مثلما تفعلون، شريف مسلم مثلنا يريدني بالحلال!

أدركنا جيداً أنّها لَمْ تقترفْ قطّ حراماً أَوْ عيباً..

يرنُّ هاتفها فينتشلني.

تتطلعُ فيه وَتَتَجَاهَل:

مَنْ؟خالتي؟

تلمح الهاتف وتبتسم:

– هذه صديقتي من الإمارات سأكلّمها فيما بعد!

– أترغبين أن نلفّ حول الأجمة؟

– لابأس.

لابدّ من أن نلفّ.

ندور.

نسعى.

المكان ذاته، وأوراق الأجمة مازالتْ خضراء. تعنيني قطرةُ دمٍ سالتْ، وصخرةٌ تَجْثِمُ في خاصرةِ التلّة، صخرة كريستي هكذا يحلو أن أُسمّيها، ساحة الخيول فارغة، وثمّة طيورٌ، حمامٌ وغربانٌ، ونوارسُ تحلّق من جهة الغابة، شيءٌ مَا أبيضُ ينبثِقُ فجأةً من الأجمة... كانَ هناكَ أرنبٌ يعدو بخفّة باتجاهِ ساحةِ الخيول، ولا صوتَ إلّا مِنْ غِنَاء النوارسِ التي راحت ترتفع وتهوي داخِلَ الغابةِ فَتَخْتَفي وتعودُ تحلّقُ وكأنّها تمارسُ بعضَ طقوسِها بشغفٍ أبديٍّ.

أُمسِكُ يَدَهَا خوفاً من أن تنزلق.

ألمح الفجوةَ الكهفَ بينَ شُجَيْراتِ التوتِ البريِّ والهِنْدِباءِ وتغيبُ عن عينيّ رقعةٌ حمراءُ لا أدري كم لَبِثَتْ حَتَّى غَسَلَهَا النَدى والمطر، فأبْتَسِمُ

ابتسامةً ماكرة.

الأنفاس.

الصرخة

يراودُني انفعال.

رائحة حامض تقتحم أنفي فلا أقْرَف.

هذه المرّة يرن هاتفي.. أختي ماجدة تسأل: أين أنتم؟

أضغط على الماكرفون لتسمع معي:

– نحن على التلّة عند الأجمة!

– مجنونٌ.. حقّا مجنونٌ ظننتكما في المدينة!

تردّ لؤلؤة:

– إنّه منظرٌ رائعٌ؟

– خُذِي حِذْرَكِ مِنَ البَرْد لا تتْقِي بالطَّقس.

– لاداعي للخوف سأُعيرها إن كان ولا بدّ مِعْطفِي.

– هل تَبْقَى معنا الليلة؟

لا، عليَّ السفر إلى نوتنغهام!

واتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ نَلْتقيَ في مَرْكَزِ المدينةِ لتصحبَ لؤلؤةَ إلى منزِلِها وتعودَ بي إِلَى بَيْتِنَا فألتقيَ أمّي التِي ماتزال تعْملُ لِي طَعَاماً تصنّفه في عُلبٍ تغنيني عن الطبْخِ مادمتُ في نوتنغهام، وعندما، وصلتُ، فَاجَأَتْنِي، مِنْ دُونِ مُقَدِّمَاتٍ، أَنَّها كانَتْ تَقْدِر عَلى أَنْ تعْمَل طعامي الأسبوعيَّ فِي بَيْتِ أُخْتِي غَيْرَ أنّها أحبَّتْ أَنْ نكونَ وحْدَنا فتحدّثني عَنِ الجَديدِ الّذِي فِي جُعْبَتِها.. خالتي جاءت كي تؤسس مشروعا لابنتها في لندن، ستدرس

لؤلؤة هنا، زوجها يملك من المال اربعين مليون دولار غير الممتلكات الاخرى وشركة سيارات للأجرة، بعد عمر طويل له ولخالتي كم تكون حصة لؤلؤة؟ فأقاطعها كأن المسألة ذات وجهين: تعنيني ولا تعنيني:

– أربعة إخوة وللذكر مثل حظ الأُنْثَيَيْن ثمّ إنّها اربعون مليون دولارا خمسة وعشرون مليون جنيها!

أقولها مُتَهَكِّماً وأنا أقرص حنكها قرصة خفيفة.

– أووه هَلْ تَعِي ما أقول!

فأهزّ كَتِفَيّ:

– لِيَزِدْهم الله من خيره تلك مسألة لاتعنيني، نحن هنا لدينا مايكفينا.

لا تترك لي فرصة فتندفع:

– بل تعنيك وتعنيني مائة بالمائة، يا حسن أنا أفكّر بمستقبلك وأحفادي، أخوك أشعر أني ثقيلة عليه عندما أطيل في زيارتي لهم.زوجته طيبة.. لكن تبقى غريبة.. أجنبيّة أخذ يتعلم الأسبانية من أجلها لأنه يعرف سيتحدث مع أولاده في البيت وأمّهم بالأسباني. وأولاد أختك سيقضون معظم وقتهم مع جدّهم وجدّتهم اللذين يتعلمون منهما الأوردية، "واستندت إلى حافة بار المطبخ فأطلقت حسرة طويلة" وأنا من لي رحم الله أباك وجدّتك!

أعرف كم عانته أمي بعد وفاة أبي وجدّتي. كثيرا ما تتذكرهما أذا بان التعب على وجهها أو اصطدمت بمعضلة ما، فتترحّم عليهما.لا أجد في كلّ ما تقوله شيئا غريبا عليّ أنا الذي ولدت في برمنغهام عام ١٩٩٩ وكنت أتحدث الإنكليزية في المدرسة والشارع وكلّ مكان ماعدا البيت،

حتى عندما أكون في المنزل وأغتنم فرصة ما أَجِدُ كأني أعود إلى الشارع فأحضّر دروسي وأتابع القنوات وفق هواي!

لا أستغرب إذ أرى كثيراً من الظواهر البعيدة عنّي تشغلني.ترتاب بي وأرتاب بها ثُمَّ في نهاية الأمر نتصالح.

أمّي تريدني أن أتغيَّر... أعيش بمشاعر واحدة!

بوجه واحد.

زميلي في العمل كالُم الذي يسبقني خبرةً الشيوعي المعجب بالصين وإيران وفنزويلا.. يؤيّدني في أن رئيسة وزراء اسكتلندا هي الأكثر أناقة، ويتحمَّس في دفاعه عن برلسكوني، يُكذِّب أن كوريا الشماليّة أعدمت مصابا بالكورونا، كلّ ما يسمعه سموم رأسماليّة مبالغ فيها. ولا يهمّه أن يتغير جواز السَّفر بعد خروج بريطانيا من الإتحاد الأوروبي من الأحمر إلى لون آخر أو أن تُصدر الدولة عُمْلةً من فئة خمسين بنسا لكنه مهما يكنْ سيبقى مع زوجته الإنكليزية وأولاده ولا يلتحق بدولة اسكتندا إذا ماحدث الانفصال.

المشاعر واحدة..

أشكّ أن حكمة أمّي التي تبدو ساذَجَةً لا تختلف عن انفعالاته.

لعلَّني أُشفق عليها أكثر مما آسف!

وأجدها تبالغ في كثير من الأمور.

لا أنكر أني انفعلت وحزنت مثل أخي الكبير صبيح وأختيّ- يوم سمعت بمصرع أبي الذي كان يبحث عن ذاكرته في مكان هَرَبَ منه وإذا به يعثر على موته هناك، وعندما تُوُفِيَتْ جدتي التي كانت في زيارة

لعمّتي فدُفنت في السويد وتباهت عمّتي وزوجها أنهما دفعا نفقات دفنها هناك ورفضا أيَّ مبلغ منّا، وبدا لي أن أمّي بالغت كثيرا.. خمشت خدها، ولطمت، ودعتْ الشرقيات ممن تعرفهنَّ أوْ لا إلى المركز الإسلاميّ وَلَبِسَتِ السّواد عاما حدادا على أبي وآخر على جدتي، وكأنّها في تلك اللحظة – لحظة وجودنا في البيت وحدنا – تحاول أن تقترب خطوة من الفرح، وهي في شكّ من ذلك، فأخطو نحوها.. ألتقط يدها أقبّلُها وبيدٍ أخرى أطوّق خَصْرَها، وأهتف:

أيتها الفاتنة الجميلة أنتِ ذكية ستتعلّمين كلَّ اللغات!"وأضيف مترنمًا" والرّقص أيضا. هيّا تعالي!

فأُراقِصُها، وأنا أدندن، رقصة الفالص.

## ١١

أعود إلى وجهي في المرآة.

موجز الأخبار من BBC نوتنغهام بصوت Cate Forest:

عاصفة جديدة متوقعة بعد عاصفة ciara

زوجة مقدّم البرامج الشهير فيلبس تصّرح أنها كانت تعرف منذ ٢٥ عاما أن زوجها gay وستطلب الطلاق إذا قرر العيش مع :partner تعلن أن ثروته تتعدى ال ١٢٠ مليون باوند.

ضحايا كورونا يتجاوزون ال ١٥٠٠.

وفاة بريطانيّة من أصل صومالي سافرت إلى مقديشو لتجري عمليّة ختان!

ابتسم على الرغم من قساوة الأخبار. إذن اسمها كيت فورست. جميل.. ولن أتعب في البحث عن وجهها بخيالي. أيّ وقت أشاءُ أدوّن اسمها في غوغل.. مذيعة محطة نوتنغهام.. سأراها بلا شك لكنّي لن أشغل نفسي الآن. هذا الصوت الجميل تحدّث عن أمور قد تبدو سيئة: مأساوية، من وجهٍ آخرَ لا تخلو من تسلية. صوت هادئ رقيق تذوب في طلاوته حدّة الأشياء وقسوتها. لا شئ عن الشرق أو انتفاضة العراق. أقتنع أنّ كثيرا من الوقائع وإن كانت قاسِيَةً وبعضها مثير للقرف فإنها ضرورية للخروج عن رتابة المألوف في حياتنا ورتابة الكون نفسه ولابدّ أن تتلاشى تلك الوقائع والأحداث الباعثة على الخوف بمرور الوقت من

الذاكرة لتحلّ محلّها كوارث ونكبات أخرى فيستعيد وجودنا توازنه من جديد.

بها ندفع الملل عن أنفسنا ونسدّ فراغا هائلا يكاد يبتلعنا.

أحقًا تصبح الحياة من دون طعم بغير قتلٍ وعواصف وفيضانات وحرائق؟

ربّما أُقنع نفسي أنها مُجريات لا بدّ منها لنرى جمال الجانب الآخر.

أو على الأقلّ أتظاهر أنّي أقتنع بما يدور حولي وإن لم يصل إليّ أذاه..

اليوم لن ينزل كالم من الطابق العلويّ فيعمل معي وآمُلُ أنْ ألتقيه في فترة الغداء لأسمَعَ منه عن بلدٍ مّا أوْ شَخْصيّة يحبّها، فها أنا أخيرا بعد سبعة أيّام من ظهور كورونا المفاجيء أقابل ياسمين التي يسميها الآخرون جاسمين!

إنكليزية، واضحة الملامح، ذات وجه جاد، حلو شفّاف.. وابتسامة لا تغيب عن شفتيها:

نطقتُ اسمها كما يراه الآخرون، ومددت يدي مصافحا ومرحّبا:

– أهلا جاسمين يسعدني أن ألتقيك وأعمل تحت إمرتك!

– أهلا بك أنا سعيدة بوجودك معي.

– هل قرأت التقرير الأخير عن تايرون وطريقة تعاملنا معه أنا وكالم؟

– مُذهل قالت عبارتها وتصفحت الملفّ على الرفّ، وعادت تقول: حضّر نفسك سنصحبه إلى الحديقة بعض الوقت ثمّ نخرج، ولن نستخدم

السيارة فالأفضل أن نمشي إلى كافتريا ساينس بريز.

هل من ثالث معنا:

– الحقيقة إنّه خَطِر بحاجة إلى ثلاثة يرافقونه لكن سنعمل بالممكن.

– كما ترين!

خرجنا مع تايرون إلى حديقة البناية الخلفيّة. كانت الجامايكية وكالم يدرِّبان متوحدة على زراعة بعض الشتلات في البيت الزجاجي الكبير، وفي طرف الحديقة وقفت سكرتيرة المدرسة ومعلمة أخرى تشذّبُ مع مجموعةٍ من المعاقينَ بَعْضَ الأغصان الجافة. لا شئ سوى صيحة حادة من الطابق العلوي الأمر الذي اعتدنا عليه.

كانت مظاهر السعادة تبدو على تايرون. فوعدناه أن نبتاع شجرة تفّاحٍ أو أجاصٍ يزرعها في مكان بدأ الحفر فيه عندَ الطرفِ البعيدِ من الممرِّ الجانبيّ.

هدوء تام..

وسعادة

فرح

تايرون يحفر.. الفرح يرتسم على وجهه أراقبه حذرا من أن يطوِّح فجأة بالآلة التي بيده من دون أيّ سبب، وبعد أكثرَ مِنْ ساعةٍ خرجنا إلى الكافتريا القريبة. كنت أقبض على يده خشية من أن يفلت فيهرول إلى الشارع. هَمَمْتُ أن أكسِرَ رتابة الطريق. فدفعني فضول:

– كيف كانت سفرتك!

– رائعة بحق!

– أوّل يوم باشرت العمل فيه أثارني اسمك. أنا من الشّرق من أصول عربية. الجميع يسمّيك جاسمين فهل تسمحين أن أناديك ياسمين؟

– اسمي ياسمين هكذا تناديني أمي وأبي في البيت!

وبعد لحظة صمت:

– من أي بلد أنتِ؟..

جوزاي بريطاني أنا مولود هنا في برمنغهام من أبوين من جنوب العراق مدينة يقال لها الناصريّة.

فابتسمت بدهاء وَرَدَّتْ:

– اسمي شرقي بحت.. أنا أبي من إيرلندا، وأمي يهودية سجّلتْ ديانتي اليهودية في السجلّ المدني أمّا أبي فهو يتحدر من عائلة كاثوليكية لكنه لايؤمن بأيّ دين.

دهشة...

انفعال...

–Unbeliever

غضب أو قرف أقرب إلى الصّدْمة.

أُمسِكُ نفسي عن الدهشة والانفعال.

مسحة من الخيال البعيد.. قد يكون جدّها قتل جدي..

أغالط..

محال.

بالتّأكيد ليس هو. لا يحملني الخيال إلى رؤيا بعيدة.

لا عاقلٌ يظنّ ذلك. ولا أَجِدُ مفاجأةً فيما يجري الآن.

حَسْبَ أسوأ الاحتمالات يكون وافقَ على عمليَّة القتل.. أو أفْتَرِض لو أنَّهما التقيا في مكان ما وحدهما وبيد كلّ واحد منهُما سلاح. هل يقتل أحدهما الآخر؟

أحبِسُ ابتسامة مرَّة، وأخفي انفعالاتي. بالأمس كنت مع فتاة على قمة التلّ أثارت فيّ أحاسيسَ مختلفة تماما. لِمَ أقْرَفُ من أخبارٍ تخصّ الموت رأيتها ضرورية لخروج الأشياء عن رتابتها، وخبرٌ واجِدٌ يهزّني!

يَأْخُذُني بعيداً.

يكاد يقتلعني كالعاصفة الميتة (كيارا) في لحظة قوَّتها واتساعها مع ذلك تبدو لمن يراها عن قرب، بعد سكونها، أنَّها أضفت على المدينةِ طابعاً من الخجلِ والبهاءِ.

أَظُنّني أُبَالِغ.

- هل زربتِ إسرائيل من قبل؟

سؤال مباشر غالبت نفسي في كتمانه.. فضول لا أكثر.

- البارحة عدت من هناك!

اجتزْنا الشَّارع العام.. نحو الطريق الجانبي والدوَّار الصغير فدخلنا كافتريا ساينس بريز.. مازلتُ مذهولا..

لم ألتقِ بيهودية في فترة الدراسة أو التقيت ولا أعلم..

ولم أسمع سوى من أَبِي وَجَدَّتي أنَّ جدِّي أول قتيل في الجولان عام ١٩٧٣.

حدث لا يهزّني من قبل..

يفاجؤني هذه اللحظة.بشخص أمامي بلون آخر.

ليست هناك من مناسبة لأتلوَ الحديث على مسامع كريستي أو زملائي التلاميذ كما يفعل أبي وَجَدَّتي في بعض المناسبات.

خبر قديم مات في نفسي من زمان كما مات خبرُ مصرعِ أبي..

أمّا أن يتوهج فجأة فلا أعرف له سببا.

خوف أكثر مما هو صدمة أو قرف.

وربما حِقْدٌ دفين لم أعِه.

تركنا تايرون يختار مايرغب.. يتعامل مع البائعة كأيّ زبون يقف في الطابور، ينتقي الصُّوْصَج.. وأصابع البطاطا المقلية، وعصيره المفضّل، ثمّ عُدْنا معه إلى الطاولة.

لحظة صمت، قطعتها بالكلام مع تايرون:

- أنت رائع ياتايرون.

بالتأكيد. سنصحبه دائما إلى الكافتريا والمسبح ونزور طاحونة الريح وأماكن أخرى. قالت ياسمين. وبدا أني كنت قد ظلمتها إذ اندفعت تحت تأثير المفاجأة..

ومثلما يسبق الهدوءُ الأعصار.

فجأةً...

جاءت ردّة فعل تايرون..

بسرعةٍ أرنب بريّ أهاجته كلاب صيّادين

وعنفِ ذئبٍ مسعورٍ.

زعق زعقةً عارمةً اهتزّت لصداها جدران الكافتريا، أعقبتها صيْحة حادّة، ألقى بالمائدة على الأرض وأطبقَ بيده على ساعد ياسمين

فصرخت من الألم، وتهاوت على الأرض بين المقعد والطّاولة. أثار صراخه الزبائن، وهُرِعَتِ العاملة فهتفتُ فيها ابتعدوا إنّه اسبارجر.. وحالما انحيتُ عليه أضغط على ساعدِه بإبهامي وجعلتُ أصابِعِي الأخرى تطوّق يده، وجدتُه اغتنم الفرصة فأطْبَق بأسنانه على خدّ ياسمين.

لاحَ المشْهد مثيراً وقاسِياً..

لم يكن أمامي من حيلةٍ سوى أن اضغط على معصمه بيد وأقرص رقبته بيدي الاخرى.

خفتُ لعلّني أتركُ في جسده أثراً فأُصْبِحَ عرضةً لاستجوابٍ ما.

مَعَ كُلّ ذلك راح الزبائن يأكلون ويثرثرون ولا يلتفتون إلينا كأنْ لم يحدث أيّ شئ نشاز. سأل نادل المطعم الذي ظلّ يراقب عنْ بُعْدٍ:

هل نتصل بالإسعاف.

أجابت ياسمين: كلّا أنا بخير.

وتساءلتُ:

-Shure

لم تكن لتبكيَ وإن كانت قسمات وجهها تتأرجح بين الألمِ والبكاءِ.

كان هناك جرحٌ على خدّها ورقعة حمراء فوق مِعْصَمِهَا:

- أنا بخير لقد اعتدتُ على مثل هذه الحوادث!

-هل فعل ذلك معك من قبل.

- كان يهتاجُ ويهجم على أيّ مساعدٍ قريبٍ منه أمّا معي فهذه المرّة الأُولى.

وعدنا صامتين إلى مركز "حقل الزعفران". هل تحوّل غضبي على ياسمين إلى شفقة؟

بدا وجهها لي أكثر براءة، وأكثر نقاء.

رقيقة.

يخيّل إليّ أنّها لا تكره أحدا.

رُحْتُ ألومُ نفسي على نفوري منها.. أدركتُ أنّي ولجتُ عوالمَ بعيدةً عنّي إلّا أنَّ هُنَاكَ زَهْواً خالطني لحظة إنقاذها من قبضة تايرون وفكّه، فظننت أنّي أصبحتُ قريباً منها.. وأنَّ الأيّامَ القادمةَ يمكن أن تُقاربَ بيننا.

صداقةٌ لها خصوصيةٌ انتظرتها من غير أن أشعر!

قلتُ خلال دقائق الاستراحة في كافتريا المركز:

– هل تذهبين إلى منزل والدتك في داريي بعد الدوام أم لديكِ فسحة من الوقت فنختار أيَّ مكان نتناول فيه العشاء.

فتطلعت بي بلا مبالاة:

– اعتذر my partner will come to take me

أبتَسِمُ في سري وأعْتَذِرُ:

– آسف لندع ذلكَ لوقتٍ آخر.

فقالت بتصميم:

– لن أقدِرَ قط فأنا أسكن مع صديقتي في شقّة وهي شريكتي!

هذه المرة قرفتُ حقا..

ندمْت..

تَسرَّعْت..

أكتشف أني أقرف ولست حقودا قط.الذي أتيقن منه جيدا أنها سحاقية. هكذا يطلقون عليها في بلاد أبي وجدّي، يحتقرون تِلْكَ الأصناف.. شواذ منبوذون...gay... lesbian.. إذا سَمُّوا بلدا ما احتضن الأحزاب بالشَّكَرة فماذا يطلقون على السحاق واللواط.

قرفٌ أم؟:

إنها النحلة كما يصفها العاملون. الجامايكية تُجَامِلُني... من حسن حظّك ستعمل مع جاسمينة.. صديقي كالم يقول إنَّها طيبة على النقيض من شخصية كيلي مكنزي الخبيثة الانتهازية التي تتطلع إلى أن تحتلّ منصب المدير ذات يوم. أبتسم في سِرّي.. أعود إلى مباراة لكرة القدم بثّتها قناة BBC1 بين ليفربول وبيرمنغهام، بعدها وقد سرحنا مع المباراة أنا وأخي الأكبر، ظهر على الشاشة.. Muslim gays in Britain غادرت أختي الكبرى مُطَأْطَئَةَ الرأس، وقد زعق أبي قبل أن نسارع لتغيير القناة: حرق.. والعياذ بالله من هذه الأشكال.. شذوذ.. هذا عقابه الحرق في ديننا.. هؤلاء حرق في الدنيا والآخرة، فأُذْرِكُ تماما بعد عملية الحرق التي جاءت متأخرة بضع سنين أن أبي هُرِعَ إلى الكنيسة لِيُثْبِتَ ميلادي شأنه مع أخي وَأُخْتَيَّ، ومثلما لم أحسَّ بألم الختان في اليوم السابع من ميلادي، وأبتهج لروعة عقيقة دعت إليها أُمّي وجدّتي في المركز الإسلامي الكبير، لا أرى كريستي وأيّاً من صديقاتي اللائي عَرَفْتُهُنَّ بعدها تبالي بكون هذا الفتى الشرقيّ مختوناً أَوْ أَغْرَل، ولا يَشْغَلُ بالي أَيْضَاً وفاةُ صوماليَّة رحلت إلى بلدها الأصلي لتجري عملية ختان.. لا

يهمّني أحَدَثَتْ ضَجّةٌ في الصحافة وتحوّل موتها إلى أزمة سياسية أم انتهى اللغط بطريق ملتوٍ إلى دهاليز مغلقة.

لا أبالي بكلّ ذلك..

أنا الآن أواجه حالة غريبة..

جديدة..

أتأمّل فيها احتمالات كثيرة.. أتساءل بسذاجة: هل يمكن أن تصبح كريستي صديقتي السابقة أو أيّة واحدة ممّن عرفتُ مِثْلِيّةً. تنقلب تماما؟

تَقْرَفُ من الرجال ذات يوم..

يدعوها زميل في العمل دعوة عابرة فتقرؤ ما في ذهنه من معنىً بعيد!

تملّ...

أو

على الأقل

تحاول أن تجرّب طريقةً جديدةً في ممارسة تلك اللعبة!

وَقَبْلَ أن أجد جوابا أقتنع به أُبْصِرُ قَطْرَةَ دَمٍ تَرَكْتُهَا على ترابٍ داكنٍ يَوْمَاً ما، وأقسم أنها أوّلُ دم أُرِيقُهُ في حَياتي، قطرةٌ تتشكلَ صورا متباينة، فتتشطر إحداهن وَتَرْتَفِع إلى السَّماء تُصْبِحُ رجلاً يطاردُ رجلاً وامرأةً تلعقُ أُخْرَى، وجوه معجونة بالبراءة تذوب بأخرى ممسوخة..أمّا أنا وكريستي فقد وقفنا بين الثلّة وأجمة الهنديا‌ء تُبْصِرُ ما تحت أرجلنا، فَنُشْفِقُ، أو تَسْخَرُ، أو تَشْمَئِزُّ من العالم، حادث اليوم الذي أواجهه من دون تَوَقُّعٍ سابقٍ أقلّ فِي عُنْفِهِ مِنْ صَدْمَةٍ، العتب كلّه يقع على عاتق صديقي كالُم

الذي ذكر لي عن لؤم كيري مكنزي سكرتيرة المدير، وانفصال اسكتلندا ورئيسة الوزاء الأنيقة نيقولا سيرغن التي تظهر بمنتهى الأناقة في كلّ إطلالةٍ ببدلةٍ جديدةٍ، والملكة التي لا تنزل عن عرشها مهما طالَ بها العمر، وتمثال بوبي ساندز في أحد شوارع طهران وكيف يَبْتَسِم الأنكليزيّ بوجهك ويطعنك بِخِنْجَرٍ في ظهرك حالما تستدير عنه، وَلَمْ يذكر لي أيّةَ إشارة عن ياسمين. ترى هل كان يعرف أم عدّ الأمر غير ذي شأن. بالتأكيد يعرف وَلَعَلَّه لا يروم الخوض في خصوصيات زملاء العمل.

لا أَحْتَقِرُها أَبَدَاً..

أحترمُها.. بل أشعر بشيءٍ غريبٍ غرابةَ كثيرٍ من الأمور التي تبدو قريبةً جدّاً منّا ولقُربها الشّديد نتخيّلها أكثرَ غموضا وتعقيدا من غيرها!

.. دوار..

نفور.. غثيان

شيء ما لا أفهَمُه!

حتّى عندما كنت صبيا وفي مرحلة المراهقة لم تلفت اهتمامي إلّا أفلام الرعب والأكشن ولا أتذكّر أنّي أنا وأخي صبيح كنّا نفكّر حين نختَلِس الوقت بالبحث عن قنوات أخرى. كانت الأفلام الإباحية وأشرطة المثليين غائِبَةً عن ذهني تماما، ولم يصادف أن التقيت خلال مراحل الدراسة مثليين.

أمّا الآن فأنا وجها لوجه أمام حالة جديدة عليّ!

معي في العمل ألتقيها كلّ يوم، وقد وجدتها قبل قليل عرضة للاعتداء.

أدَّعي أنّي أذهب إلى دورة المياه. أقف أمام المرآة كأنّي أتأكّد من خدشٍ طال وجها آخر غير وجهي. لقد كان حقّاً يوماً شاقّاً، ترك أثره القاسي على خدّ ياسمين، وأظن أن الجُرحَ سيزول بمرور الوقت، أمّا أنا فقد ركبت الحافلة، وكان المطر يهطل يسابق أفواه المجاري، والعاصفة توشك أن تداهم من جديد. بلا شكٍّ سيجدون لها اسما آخر مثلما وجدوا لعواصف قبلها أسماء مستوحاة من أسماء الحموات والأعداء، ياترى هل وجه مذيعة الأخبار Cate Forest جميل كوجه جاسمين؟ لن أتعب قط سألجأ إلى صديقي (غوغل) حتّى أرى وَجْهَ سيدة شغلني، مدّةَ أسبوعٍ، صوتُها الدافئ الجميل عن رؤية وجهها ومازال يتدفّقُ كلّ يوم ينقل لي أخبارا عن العالم تجري بشكل أفظع يوما بعد يوم لكنّ الذي يشغلني الآن شيء آخر مختلف تماما، ولم أتغلب على الخاطر الجديد الذي ألحَّ عليّ، فرفعت الهاتف إلى أذني لأسمع صوت أمي:

– أحدّثك من لندن أنا مع خالتك، أبشّرك ستؤسس مشروع أزياء وتشتري بيتا هنا!.. أليس من الأفضل أن تكون معنا في متابعة المعاملات؟

السُّؤال ذاته بصيغة أخرى: هل تذهب مع جدتك إلى المركز الصحّيّ، واللهِ لو كنتُ أتحدّث اللغة مثلكم لرافقتها، وهناك تبدي الطبيبة الإنكليزية امتعاضها ولا تخفي أن حضور الصّغار مع كبار السنّ غرضَ التّرجَمَةِ يسبّبُ مضاعفاتٍ وآثارا تتحوّل إلى كوابيس في اليقظة، أسخر في سرّي من الطبيبة التي تجهل أني عايشت لحظاتٍ وجدتُها رائعةً لأفلامِ رُعْبٍ قُلِعَتْ فيها عيون وشُوّهتْ وجوهٌ بشكلٍ أسوأ مما لو فاجأني

الحديث عن مرض خطير، وتضحك جدّتي حين أسألها بِخُبْثٍ هل تأخذينني معك إلى دمشق أترجِمُ لك عندما تنوين زيارة قبر جدّي؟ أمّا خَالَتي فلا تحتاج إلى مترجم لديها محام ومختصون مع ذلك أَجِدُ الجميع لا يستغنون عنّي، فهل أُجَامِلُ نَفْسِي، أم أُبَالِغُ إلى حدّ الزّهو في هواجسي؟

ومن دون تردّد:

- اسمعي جيدا سآتي إلى لندن فأكون عندكم بعد ساعات!

خلتُ أن وجهها ووجه خالتي يتهللان بالحبور:

- حسنا ستجد لؤلؤة تنتظرك في محطة القطار.

ولم أتجه إلى شقّتي.

أراني تلك اللحظة أُعْرِض في الغدّ عن وقفتي المعهودة أمام المرآة شأني صباحَ كلّ يوم، فلا أرى وجهي أو أسمع من المذياع أخبارا جديدة عن الموت بالقتل والموت الموعود بوباء كورونا القادم من الشرق الأقصى كما يَدَّعون. فمَازَال الوباءُ جَديداً على العالم. لَمْ تُغْلَقْ المطارات والمطاعم بَعْدُ، وتفرغ الشوارع من المارّة، وتأمر الحكومات بلبس الأقنعة، ولن تستقبل المراقص والحانات زبائنها أو تستغني المصانع عن عمالها.

الدّول المتقدمة كُلُّها ببوارجها وصواريخها وأسلحتها المتطورة، والتّكنولوجيا، والتِّقْنِيَة الدَّقيقة بَدَأَتْ تعلن توجّسها من المجهول الخفيّ الذي يحتفي بتاج أحمر يعتاش على الدَّم، العالم مشلول يائس، وهناك من يسأل عن دواء جديد يمنع الكارثة لداءٍ قد يكون حُلُماً مَقِيتاً أَوْ كَابوسَاً من كَوابِيسَ نَفْزَعُ منها وَنَنْسَاهَا بعد حين.

ليس هو بآخر داء يظهر، فمنذ بدء الخليقة والعالم كلّه بعظمته وقوّته أسير لعالم الخفاء الذي يلاحِقُ أنفاسَنا. لقد عِشْتُ سبعة أيام أُنْصِتُ إلى صوت المذيعة الدافىء، فأتابع أخبار كائن مخفي يراوغ العالم، والآن بدأ COVID19 جولة أخرى من الرعب ولا أظنّها النّهاية، فقد تأتي أحداثٌ أسوأ وأسواء، من أيّ مكان كان، أو من لا مكان. حقًا دُهِشْتُ وأنا في سِنٍّ أصغر حين ظهر في الأخبار صينيّون يتقنعون من داء (سارس) وزادني دهشةً أنّي لمحتُ بعض هؤلاء المقنّعين في شوارع برمنغهام وكان بعضنا يسخر صائحا من أيّ زميل يعطس في المدرسة (سارس)، ولا أخفي أنّي لم أبالِ بمرضِ نقصِ المناعةِ لقد كانت كريستي عذراء وبعد افتراقنا غاب عن بالي الإيدز إذ وجدت العالم كلّه تناساه فتناسيته. هذه المرّة أبصر حيرة لامتناهية ترتسم على وجوه الآخرين قد تنتقل إليّ بين لحظة وأخرى. لست عرّافاً يتشبّثُ بعلامة شؤم غير أنّ كِيلي مكنزي الوصوليّة المنغلقة تغيّرت إلى حدٍّ بعيد وتلك إحدى العلامات. أخذت تبتسم في بعض الأحيان. تنبسط أسارير وجهها الجادّ فتذكّرنا أنّا بَذَلْنا جهداً مضاعفاً يومَ تعطّل الجسر وازدحمتْ حركة المرور، فتحمّلنا عبئا ثقيلاً، ويبدو أنّ العالم ينتظر، بعد اليوم السابع من الإعلان عن COVID19، تَغَيُّراً لابدّ منه، فإن حدث ذلك فقد نتحمّل أعباء جديدة أكثر من أيّ قطاع آخر، ولعلّنا في المستقبل نعمل من بيوتنا عن طريق النّتّ. يقول صديقي كالم إنها تشبه من يتحدّث عن نبوءة، وفي ظنّي وهذا ما جعلني أهمس في أذنه أنّ العالم سيكون أسوأ حين تتغيّر مكنزي إلى الأحسن بالتالي أفضّل أن تبقى على ماهي عليه، ماعدا ذلك فلا شكّ أنّ

هناك أحداثا جميلة تنتظرنا أيضا، فهناك مسحة من التَّفاؤل أيْسَرُها أنّي آمُل ولو في الحلم أن تقف العدوى على الطرف الآخر من ساحل بحر المانش..

قلت ولو في الحلُم، وفي هذا الوقت يمكن للحلم أن يختلط بالواقع فلا نميّز بينهما.

لا أريد أن أتعجّل،

ولا أرغبُ أن أستَبِق الأحداث.

يكْفي أنْ أَلْمَحَ ذلكَ المبْهَمَ الخَفِيَّ ذا التاجِ المرصَّعِ بالحمرةِ عَلَى نشراتِ الأَخْبَارِ الضَّوئِيَّةِ وصفحاتِ الجرائدِ المتناثرةِ أمامَ الأكشاكِ أَراه مثيراً على الرّغم منَ الرُّعْبِ الكَامِنِ فيه وَعَلى ذوائِبِهِ السَّاطِعةِ بالألوانِ، وَلَوِ انْتَفَخَ وَأَصبح كبيرا يمكنُ أنْ تَقَعَ عَلَيْهِ عَيْنَاي لكانَ مثلَ الكلبِ الشَّرس يزيِده هَيَجَاناً هَرَبِي ويتوقّفُ إذْ يَرَانِي أَمِيلُ نَحْوَ الأرْضِ كي أَلْتقِطَ حَجَراً أُسَدِّدُه نَحْوه.. وَلا أنسَى في هذه اللحْظة السَّريعة أو أتجاهلُ البحثَ فِي صَفْحَةِ صَدِيقِي الجَدِيد (غوغل) عنْ وَجْهِ المذيعةِ التي نقلت إليّ أخبار العالم المرّة والحُلْوَة.

لَمْ أَعُدْ أَهْتَمُّ قطّ إنْ كانَ جميلاً أم لا.

كنتُ أغادرُ الحافلةَ فأستقلُ القِطارَ الصَّاعِدَ إلى لندن!

## ملاحظة عابرة

الرواية كتبتها في الاسبوع الأول لظهور وباء كورونا، فتابعت الأمر مدة سبعة أيام ولاحقت أخبار محطّة التلفاز بخاصة في الوقت نفسه قمت بنشر هذه الرواية القصيرة في صحيفة المثقف التي تصدر عن مؤسسة المثقف في استراليا على شكلّ حلقات كلّ يومين أو ثلاثة أنشر حلقة فأجد تفاعلا وحماسا من القرّاء والنقّاد وأودّ أن أنوّه إلى أن بعض شخصيّات الرواية من صنع الخيال وآخرين سمعت بهم أو عرفتهم حقّ المعرفة. لقد تداخل في روايتي هذه من خلال شخصياتها الواقع بالخيال فخاطب كلّ منهما الآخر ليتحدا معا فيواجها عالما من كائن خفي يريد أن يضع نهاية مفترضة للعالم، كما أشير إلى أنّ الرواية هذه قرأها الناقدان الأديبان د صالح الرزوق ود عبد الرضا علي قبل طبعها أي من خلال متابعتها مخطوطة أو منشورة على حلقات. وقد كتب كل منهما مقالا نشره في صحيفة المثقف والناقد العراقي.

## السيرة الذاتية للمؤلف

الاسم قصي عبد الرؤوف عسكر

اسم الشهرة قصي الشيخ عسكر

ولد عام ١٩٥١ في قرية نهر جاسم- البصرة – العراق

درس في مدرسة التنومة الابتدائية ومتوسطة شط العرب وثانويّة العشّار في البصرة

بكلوريوس في الأدب العربي- جامعة البصرة

دبلوم وماجستير من جامعة دمشق

دكتوراه من الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية –لندن

يحمل الجنسية الدنماركيّة ويقيم في بريطانيا- نوتنغهام

عمل في التدريس ومراسلا صحفيا ومقدم برامج في قناة كوبنهاغن القسم العربي

## بعض من بحوثه الأكاديمية المطبوعة

أطروحة الدكتوراه مطبوعة وهي بعنوان أساطير العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة

معجم الأساطير الجاهليّة

تعريفات القدماء للبلاغة

## مؤلفاته الشعريّة

- رؤية مجموعة شعرية،مطبعة الأمين، دمشق ١٩٨٥
- صيف العطور الخرساء،مطبعة الثقافة، دمشق ١٩٨٨م.
- عبير المرايا، دار اليسر، دمشق ١٩٩٢م.
- رحلة الشمس والقمر، دار الأضواء بيروت، ٢٠٠٢م.
- الديوان الرشيق عن مؤسسة المثقف سدني أستراليا ودار أمل دمشق

## المؤلفات الروائيّة والقصصية

- الشاعر، مجموعة مسرحيات قصيرة، مطبعة الغري، النجف عام 1973م.
- المعجزة قصص قصيرة، دارمجلة الثقافة، دمشق عام ١٩٨٩م.
- المكتب، رواية، دار الحصاد دمشق ١٩٨٩م.
- المختار، رواية، دار الكنوز بيروت ١٩٩٠م.
- سيرة رجل في التحولات الأولى، دمشق عام ١٩٩٠م.
- شيء ما في المستقع، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق عام ١٩٩١م.
- الشمس تقتحم مدينة الثلوج، دار الكنوز، بيروت عام ١٩٩٣م.
- امرأة بستة أزواج، دار الكنوز، بيروت، عام ١٩٩٥م.
- التجربة النفق الموتى يزحفون، روايات من الخيال العلمي، دار الكنوز، بيروت، عام ١٩٩٥م.

- آخر رحلة للسندباد، دار الكنوز، بيروت عام ١٩٩٥م.
- نهر جاسم، دار الأضواء، لبنان عام ٢٠٠٤م.
- وأقبل الخريف مبكرا هذا العام، رواية، ط القاهرة.
- المقصف الملكي، رواية، بيروت.
- الحبل والنار التي تسري، رواية، بيروت.
- الثامنة والنصف، رواية، بيروت.
- رسالة، رواية.
- روايات وقصص من الخيال العلمي، ط القاهرة ٢٠١٠م
- الرباط رواية دار ليندا دمشق ٢٠١٧م.
- قصة عائلة رواية، مؤسسة المثقف ودار أمل الجديدة ٢٠١٧م.
- نوتنغهام في علبة لشمانيا دار المثقف سدني أستراليا وأمل دمشق

**الدوريات العربية التي نشر فيها المؤلف**

- الموقف الأدبي، مجلة اتحاد الكتاب العرب – دمشق. جريدة المؤتمر اللندنية. العربي الكويتية. جريدة الاهرام المصرية. القبس الكويتية.

**-النشرات الأجنبية:**

عشر قصص قصيرة نشرت في بعض الصحف الدنماركيّة

مجلّة أكاديميّة أمريكيّة تُعنى بالأدب والشعر Poetry international

**النشاطات الفكرية:**

- إلقاء عدة محاضرات عن الأدب العربي في جامعة دمشق.

- إلقاء عدة محاضرات عن الأدب العربي في قسم الاستشراق بجامعة كوبنهاغن.

- المساهمة في رفد معجم البابطين للشعراء العرب والمساهمة فيه.

- المؤلفات التي صدرت عن أعمال الشاعر

- رسالة ماجستير عن شعر قصي عسكر، كلية التربية، جامعة البصرة، خلدون الموسوي.

- رسالة ماجستير عن روايات قصي الشيخ عسكر، كلية التربية، جامعة البصرة، الآنسة إيناس جاسم محمد.

- الرواية والمستقبل والنص الموازي، دراسة في روايتين لقصي الشيخ عسكر، د.عبد الرحيم مراشدة، كلية الآداب، جامعة جدارا، الأردن، ط العارف، بيروت، ٢٠١٣م.

- رائد الأدب المهجري المعاصر، د. هدى الصحناوي، عن مؤسسة المثقف والعارف للمطبوعات، ٢٠١٦م.

- الحساسية الجديدة في روايات قُصي الشيخ عسكر، د. صالح رزوق عن مؤسسة المثقف ودار ليندا، ٢٠١٧م.

- بحث محكم قدمته عن شعر الشاعر للدكتورة هدى صحناوي استاذة الادب العربي الحديث في جامعة دمشق / كلية الآداب المجلة دراسات الخليج التي تصدر عن جامعة البصرة.

- البطل البريء، الدكتور حسين سرمك، دراسة عن قصة عائلة، مؤسسة المثقف ودار أمل الجديدة، ٢٠١٧م.

- بعض المقالات التي كتبها أدباء ونقاد عن مؤلفات الكاتب في

الصحف العراقية الدكتور عبد الرحيم مراشدة تمثيلات التفاصيل في الرواية العربية.. رواية نوتنغهام في علبة لشمانيا أنموذجاً عن مؤسسة المثقف ودار أمل.

- الدكنور حسين سرمك، رسالة وجودنا الخطيرة تحليل رواية رسالة لقصي الشيخ عسكر

# مؤسسة المثقف العربي

مؤسسة المثقف العربي، مؤسسة غير حكومية، تعنى بالشأن المعرفي، وتمارس نشاطها في مجالات الثقافة والفكر والأدب والفنون. تتخذ من مدينة سيدني الأسترالية مكتبا رئيسا لها، ومن صحيفة المثقف موقعا على الشبكة العنكبوتية.

جاء الإعلان عن تأسيس مؤسسة المثقف العربي في ٢٠١٠/٠١/٠٥م استجابة لمتطلبات العمل الإعلامي الراهنة، وتلبية لضرورات نشر وتعزيز وإشاعة ثقافة التسامح والمحبة والتكافل، وايجاد مركزية مؤسساتية تضمن ترابط الأعمال الصادرة عنها، ووضعها في سياق العمل المنظم. فبعد عمل متواصل لثلاث سنوات في صحيفة المثقف انبثقت نشاطات أخرى، تطلبت وجود مؤسسة لإدارة شؤونها وتسيير أعمالها.

ومؤسسة المثقف العربي جهة مستقلة، ترفض العنف والتكفير، والتطرف المذهبي والسياسي، وتستقل برؤية بعيدا عن تشظيات الأيديولوجيا وكل الانقسامات والخصوصيات التي تنال من كرامة الفرد والمجتمع. ساعية إلى ترسيخ قيم الإنسان عبر إشاعة ثقافة التسامح والمحبة والأخوة ووحدة المصير البشري.

ينبثق عن إدارة المؤسسة مجلس استشاري، يساهم في ترشيد سياسة المؤسسة، والتخطيط لمشاريعها المستقبلية، كما ستمثل نشاطات

المؤسسة خارج أستراليا نخبة من المثقفين، سعيا منهم لتعميق الأواصر الثقافية بين أبناء الكيان المجتمعي المتحد.

**مبادئ مؤسسة المثقف العربي**

- نؤمن بالتعددية والرأي الآخر.
- ندعو للتعايش بين الأديان والثقافات.
- نتبنى قيم: التسامح، والحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان.
- نحارب العنف والتحريض والتكفير.
- نرفض الخطاب الطائفي والأيديولوجي المحرض.
- نساهم في تعميق لغة الحوار والتفاهم وفق الثوابت الأساسية المستمدة من تعاليم السماء وقوانين الأرض.
- نعنى بالمثقف ومواقفه إزاء الأحداث والتحديات، ونعرّف بإنجازاته وأعماله ومشاريعه.
- أصدرت مؤسسة المثقف عددا كبيرا من الكتب، وهذا آخرها.

ماجد الغرباوي

رئيس مؤسسة المثقف العربي

www.almothaqaf.com

almothaqaf@almothaqaf.com